نفوس ودروس

بقلم الكاتب الصحفي /

حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إلى الكاتب المثالي في حياتي إلى صاحب القلم الرحيم وأستاذ الجيل عبد الوهاب مطاوع الذي عشنا معه الكثير، وتعلمنا منه الكثير، وكنا نلمح من سطوره بوضوح معنى الأدب والخلق والفضيلة والرقي والسمو، بل كنا نبصر معنى أن يكون الإنسان إنسانًا.

نفوس ودروس

بقلم / حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة

هكذا كانت النفوس.. وهكذا كانت الدروس..

تحت كل عنوان من هذه العناوين درس تتعلمه، أو موقف تستفيد منه، أو نصيحة تدرك أثرها أو تجربة تقودك في الواقع.

إنها مجموعة من الأفكار، وإن شئت فقل مجموعة من الدروس، التي تعلمتها من قراءات واسعة في سيرة الأدباء والمفكرين والعلماء، وكان لابد من تسجيلها في هذه السطور حتى يشاطرني القارئ ما وجدت من متعتها في نفسي، ويهتدي للدرس الذي تعلمته، والموقف الذي سطرته، واستفدته في حياتي، فهي بوتقة لا تسلط الضوء على الإفادة المعرفية والاستزادة العلمية، بقدر ما تركز على رصد المثل والقيم والشرف والنبل والمروءة في حياة الكبار، وما كانوا عليه من تمسك بالمبادئ والفضائل الكريمة العظيمة.

إن الحياة عالم كبير يموج بكثير من المواقف والظروف والأحداث، ويضم كثيرًا من الدروس التي تهيم النفس في قراءتها والاطلاع عليها، وما تقرأه هنا يلمس قضايا عديدة تتشعب صورها وأشكالها ما بين نفسية وثقافية واجتماعية، وأدبية وتربوية، تجد أثرها جميعا في نفسك، ويتمتع بها لا شك عقلك، وتبحر بك في سيرة عدد من النخبة المميزة، وتترك في وعيك ثقافة وبصيرة ومعرفة وشيء كبير من الحكمة والوعي.

لقد أضحت القراءة بين شبابنا اليوم عسيرة مهجورة، متمنعة على أهوائهم، وأصبحوا في خصومة منكرة مع الثقافة والمعرفة.!

لعل كتابي هذا يحوي من الطرائف والحكم والمواقف، التي تهدي للرشد ما يحببه إلى النفوس، ويقربه من العقول، ويؤلفه إلى الوجدان، فتقبل على القراءة والفائدة، والتعرف على الكثير مما كان في حياة الحكماء السابقين والأدباء الراحلين.

فالقراءة في هذا الكتاب ليست جولة بين سطور وأوراق وكلام مكتوب، بقدر ما هي جولة في نفوس الآخرين، نتعلم من مواقفهم وأحوالهم، ونقف على دروس مهمة تنفعنا في الحياة، وترتقي بنا في تعاملنا مع الناس.

بين القديم والحديث مواقف الحكماء والعلماء والأدباء والعظماء، سجلنا هذه المشاهد التي لا يمكن أبدا أن تمر على العين، دون أن يكون لنا فيها عظة وعبرة وحكمة تنير لنا الأفق المظلم والطريق المعتم..

حاتم ابراهيم سلامة

الغيرة تصنع العجائب!

كثيرًا ما أدفع بعض المتدربين على فنون الكتابة، وألفتهم لأمر هام قد يؤجج مشاعرهم الكتابية، ويفجر حماستهم للقلم، وقد تعجب أنت حينما تعلم أن هذا الأمر يتمثل في محاولة إيقاظ حس الغيرة في قلوبهم، فالغيرة أو الرغبة في المنافسة، تصنع ما لم تقو على صنعه أقوى المرغبات وأشد المحفزات.!

الغيرة تلهب النفس، وتشعل الحس، وتسوق المرء ليصنع الأعاجيب حتى يباري أترابه، ويظاهر أنداده، ويضاهي أمثاله، ونحن بالأكيد.. لا نقصد تلك الغيرة التي تنبع من حسد وحقد وغل، وإنما نقصد بها تلك التي تبعثها المنافسة الشريفة.

لقد قلت سابقا: إن الغيرة على قدر بشاعتها ووحشتها ولهيبها، إلا أن لها صورًا زاهية، وفوائد جمة، ومشاهد إيجابية مضيئة، نعم.. فعلى قدر ما تَجُر من الحسد، والذي ربما يتطور للحقد والبغض والعداء، إلا أنها أثبتت في بعض المواضع، أنها جيدة ومطلوبة، كتلك التي يكون فيها منافسة شريفة، وسباق راقي، ولعلك تجد هذا أكثر ما تجده، في الغيرة بين العلماء والكتاب، أو الأدباء والمفكرين والصحافيين، فإذا ألف أحدهم كتابًا، سارع الآخر ليؤلف كتابًا، وإذا كتب أحدهم موضوعًا أو مقالا، هرول نظيره أن يكتب موضوعًا أروع، أو مقالا أكثر إثارة وبريقًا.. فلماذا لا يستفيد الكاتب من هذه العملية النفسية، التي تدفعه للأمام في ميدان الكتابة؟

كان (الرافعي) رحمه الله في بداية حياته يقول الشعر، ويرى نفسه ندا لحافظ ابراهيم، ويوازن بين حاله وحاله، ويضع في قرارة نفسه، أن لديه القدرة أن يبلغ مبلغه، فلا يكاد حافظ يخطو خطوة، حتى يقضى الرافعي خطوة مثلها، فلما تفوق عليه حافظ بالشهرة والجاه والأنصار، وعلاقته بالبارودي، ومكانته من الإمام محمد عبده، راح الرافعي يجد الهمة، حتى ينال ما نال

حافظ، ويكمل النقص الذي تفوق عليه فيه، فأقام صلته بالبارودي، ونشر في الصحف، وصارت له علاقة عظيمة بالأستاذ الإمام، وأصبح اسمه يتردد في الصحف.

كان الرافعي في الثالثة والعشرين من عمره، فإذا بحافظ ينشر ديوانه، ويقدم له بمقدمة أدبية بليغة، كانت يومها حديث الأدباء، الذين استقبلوه استقبالاً جيدًا، وأثنوا عليه ثناء عظيمًا، فلما رأى الرافعي ذلك، غار غيرة شديدة، وعقد العزم على إصدار ديوان له، ولم يكتف بهذا بل رأى أن يصدره بمقدمة كتلك التي صدر بها حافظ ديوانه.

ووصف العريان هذه الغيرة بقوله: "كانت بينه وبين حافظ منافسة، لكن حافظ كان يتمتع بالشهرة والجاه والحظوة عند الشعب، تلك الشهرة التي ألهبت غيرة الرافعي وحفزته على الكفاح، وحمسته إلى استكمال أسباب الغلبة"

ولم ينثن الرافعي عن طريقه واهتمامه بالشعر، فانطلق حتى أصدر الجزء الثاني من ديوانه ثم الجزء الثالث، حتى تألق نجمه، وبرز بين الشعراء المعدودين، كما لقي الحفاوة من الأدباء، بما لم يلقه إلا القليلين من أدباء هذه الأمة، حتى أن الأستاذ الإمام محمد عبده قال فيه قوله الشهير: (أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفا يمحق به الباطل، وأن يقيمك في الأواخر مقام حسان في الاوائل) وقال عنه الزعيم مصطفى كامل: (سيأتي يوم إذا ذكر فيه الرافعي، قال الناس: هو الحكمة العالية مصوغة في أجمل قالب من البيان) وظل كذلك حتى عام (١٩١١م) فانحرف عن مسار الشعر إلى مسار الأدب، ليلمع في سمائه، ويكون من زعمائه ورواده.

وكان كامل كيلاني رحمه الله رائد أدب الطفل والذي ألف أكثر من ألف قصة، عاشقًا للغة والأدب العربي وقيل: إنه كان يحفظ عشرة آلاف بيت من الشعر العربي، كان يحفظ شعر أبي العلاء ويجري على لسانه في كل مناسبة شجيا معبرًا، وكان شعر البحتري وأبي تمام والمتنبي وغيرهم، ولكن المعري دائما كانت له الحظوة من تفضيله على غيره، وكان رحمه الله بارعا في الاستشهاد بألوف هذه الأشعار التي يحفظها ويتقن فهمها في أي وقت شاء، وفي أي حادثة أراد، وكان هذه الاستشهاد في حد ذاته موهبة غريبة قديرة تبهر الحاضرين والمشاهدين، وكأنه

يمتلك في عقله فهرسًا إلكترونيًا يدله على الأبيات التي يريدها في الموطن الذي يتطلب حضورها فيه.

ولعل هذه العبقرية والقدرة الخارقة، كان لها سببها الذي شرحه فيما بعد للأستاذ أنور الجندي، وكانت تربطه به صداقة قوية، فقد تبين أن الدافع لهذا الاتقان الشعري، إنما دفعه إليه غيرته الشديدة على اللغة العربية، وتحديه لأستاذه في الجامعة القديمة، وكان فرنسيًا متعصبًا للأدب الغربي، حيث كان كل يوم يطالعهم بقصيدة لشعراء غربيين أمثال لامرتين أو هوجو أو جيته أو هيني، ثم يقول متحديًا: هذا المعنى لم يطرقه شاعر عربي، أنا أتحداكم أن تجدوا مثله عندكم، وتموج نفسي بالغضب والحزن، وأذهب فأنكب ليلي كله على دواوين الشعراء العرب على اللمبة نمرة خمسة.

ثم أعود للجامعة في الصباح مقرح العينين، فأقول له: إني قد وجدت مثله وخير منه عند شاعرنا: البحتري أو المتنبي أو أبو تمام، أو ذو الرمة إلخ.. فإذا به يجبهني بشعر آخر، وأعود مرة أخرى إلى البحث، هكذا حتى تجمع لدي أكثر من بضع ومائتين مقابلة، ثم شاء الله أن أجد أكثر من أربعين معنى عربيًا لم يطرقه شاعر غربي.

يا لله.. أهكذا تفعل الغيرة والتحدي.. تلهب الحماس، وتشعل العزائم، لتصنع الإعجاز والمستحيل؟! هكذا تفعل الغيرة على الهوية واللغة والانتماء! تكدح وتتعب وتنصب لتنال الظفر على متحديها وندها، ولم يكن يدرك الكيلاني وقتها أن ما حفظه ووجده ورد به وكشف عنه، ليس أداته للظفر والانتصار على من ناصب لغته العداء فحسب، وإنما هو الإسهام العظيم الذي جعل من هذا الشاب الأديب كامل كيلاني، رائدًا لأدب الطفل في أمة العرب.!

بل كان النابغة كامل كيلاني الذي قال عنه المفكر الجسور أنور الجندي: " كم كشف لي من آفاق في الأدب العربي ثروة خصبة لم تعالج بعد، ما من مذهب علمي أو نظرية في النفس أو الاجتماع حدثته عنها، إلا وكشف لي عن أصلها وجذورها في أدبنا العربي وتراثنا الإسلامي، كان الرجل منهومًا في القراءة لديه علم غزير وعمق في المطالعة، وحصيلته من تجربة الحياة الأدبية ضخمة"

وقال عنه أمير الشعراء: "إنه كعقرب الثواني، ليس إلا طاقة حية تنفذ من الأدب والذكاء والفهم، طلي الحديث إلى أبعد حد، نافذ البصيرة إلى غير ما مدى".

حينما تمتحن المبادئ

ما أروع هذا الكاتب الذي يحترم قلمه، ويدرك مسؤولية كلمته، ويربط بين نفسه وقلمه، فإذا كانت شريفة نزيهة، كان قلمه شريفًا نزيهًا، وإذا كانت سافلة متدنية، كان قلمه كذلك.

ما أروع هذا الكاتب الذي يتمسك بمبادئه وأخلاقه، ليس أمام العواصف والضغوط والتهديدات فقط، ولكن أمام الاغراءات المادية التي تعرض عليه، وتستغل فقره ودينه وجوعه وحاجته، ثم هو أمامها ولا يُواجهها إلا بكل صلابة وإباء وشمم، راسخًا صابرًا مجاهدًا محتسبًا.

إن أمتنا بكل فخر قدمت مثل هذه النماذج الرائعة من الكتاب الأبطال، أصحاب الأقلام الشريفة الذين لم يسل لعابهم للمال، أو ترضخ نفوسهم لبريقه، أمام فقرها وقلة حيلتها، تماما كما نرى اليوم من كتاب كثيرين، لا يبيعون مبادئهم فقط من أجل المال، وإنما يبيعون شرفهم ودينهم، فما أبعن البون بين الفريقين وبين القلمين.!

(محمد فريد وجدي) الكاتب والمفكر الإسلامي الكبير، الذي ربما يجهله الكثيرون من أبناء الجيل الحالي والذي تناولنا ذكره في إيمانه بتحفيز الأجيال وتشجيع الناشئة، كان رحمه الله نموذجًا للإنسان الراقي والقلم المثالي الذي يُعلي القيم فوق كل شيء، ويعد الالتزام بالمبادئ أغلى ما في الحياة وأثمنها، والتي تهون وترخص إن تجردت من هذه المبادئ.

لقد كان فريد وجدي كتابات رائعة في الثقافة الإسلامية، رد فيها على كتاب الغرب وفلاسفته المنكرين لحقوق المسلمين وفضائل الإسلام، وكان له باعه في الاطلاع على الثقافة الدينية وثقافة العصر الحديث، وتتعجب كثيرًا أمام هذه القامة وما خلفت من تراث نافع عظيم، أن يجرفها تيار الاهمال والنسيان، ولا تجد من يتكلم عنها أو يحيي ذكراها، ولكن لم العجب والرجل صاحب هوية إسلامية، وهي التيار المغضوب عليه والذي لا يجد من يرحب به ويحتفي برموزه.!

كان العقاد يرى نفسه محظوظًا لأنه عمل مع هذا الرائد الكبير، وتشرف بالاقتراب منه، حينما أسس صحيفته (الدستور)، ولم يكن العقاد بالرجل الذي يفوته أن يخبرنا بحقيقة هذا العملاق وسماته الطيبة الأنيقة الفريدة، حينما احتك به وعمل معه.

فكان مما وصفه به: "إنه كان حرًا في فكره، وما خالفته فيه أثناء عملي معه أكثر مما وافقته عليه، ولكنه لم يغير كلمة واحدة كتبتها لمخالفة رأيه، كان شديد الإيمان بالجامعة الإسلامية، ولم يكن كغيره من طلاب الكسب والجاه من وراء هذه الدعوة، بل كان يخسر الكثير أحرج أوقات الحاجة إلى المال، ومن ذلك أنه رفض الاتفاق مع حزب تركيا الفتاة، باعتبار الدستور لسان حال للحزب في سياسته العثمانية، بعد أن تكفل بالإنفاق على الصحيفة وسداد ديونها، لأن الحزب كان يشترط أن ترفع من عنوان الصحيفة كلمة (لسان حال الجامعة الإسلامية)، ولم تمض أسابيع حتى كان الرجل يبيع كتبه بثمن يضارع ثمن وزنها من الورق، ليؤدي مرتبات الموظفين والعمال.!

كانت الدستور لسانًا ثانيًا للحزب الوطني، الذي كان موقفه معروفًا من سعد زغلول، وكنت أؤيد سعدًا وأرد على ناقديه في (الدستور)، فلم يمنع كلمة واحدة مما كتبته في هذا الموضوع"

والحق أنه يمكن أن نقول: إننا أمام رجل رائع، صاحب خلق عال وعقلية سامية، ربما نسيه التاريخ، لكننا نعيد للوجود ذكره وسموه وأصالته وعفة نفسه، ونسجل هذه المواقف التي تُحكَى في إباء النفس وعفة الخلق، لتصير مضرب الأمثال وأغنية الأجيال.!

وللأستاذ محمد فريد وجدي كثير من المؤلفات ذات طابع ديني ووثائقي، ومن أهم كتبه كتاب كنز العلوم واللغة، وكتاب دائرة معارف القرن الرابع عشر الهجري والعشرين الميلادي، وتقع في عشرة مجلدات، وله كتاب مهم بعنوان صفوة العرفان في تفسير القرآن، أعيد طبعه عدة مرات، وله كتاب رائع في السيرة، اسمه السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، وله كتاب في شرح مبادئ الإسلام ورد الشبهات عنه، اسمه الإسلام دين عام خالد، ومن مؤلفاته المهمة أيضا: الإسلام في عصر العلم، وهو كتاب جيد بين فيه التوافق بين العلم والدين، ومنها أيضا رده العلمي المتين على (الشعر الجاهلي) لطه حسين.

وكان ما أجمل ما قال عنه العقاد في كتابه رجال عرفتهم: "هو فريد عصره غير مدافع" بل ما أجمل ما قرأت من كلامه: (إن الفكر أمانة وصاحب القلم ليس مخيرًا دائمًا فيما يكتب، ولكنه يُفاجَأ أحيانا بما لا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد في حومة القتال سلاحه)

الخوف ليس عيبًا

كثيرًا ما أتأمل هؤلاء السطحيين الذين يتهمون الدعاة أو المصلحين أو المفكرين، حينما يفرون من وجه الظالمين الطغاة، ويهاجرون إلى بلد أخرى يأمنون فيها على أرواحهم وأنفسهم ودينهم من الفتن والعذاب، بالخوف والجبن.!

إن السيرة النبوية تخبرنا لنا أن المسلمين فروا إلى الحبشة، نجاة بأنفسهم من بطش الكافرين، ثم فروا كذلك من عنتهم إلى المدينة المنورة، حفاظًا على أرواحهم ودينهم، وحتى يؤسسوا دولتهم الوليدة، فهل يُعد هؤلاء في نظر القاصرين جبناء، أو مجردين من الشجاعة، أو دخلوا الجحور؟! هل حينما يأمن الانسان على نفسه ويحافظ عليها، ويوفر طاقته لملحمة قادمة، يُعدها له القدر مع عدوه، يكون خوافًا جبانًا؟

لقد جاء الخوف جاء في القرآن في نحو (١٢٤) موضعًا، وموسى عليه السلام لم يجد حرجًا أن يصرح عما في نفسه من الخوف لربه سبحانه وتعالى حينما قال وأخاه: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ) [1]

والله سبحانه وتعالى حينما رد على نبيه موسى عليه السلام، لم يستنكر فيه وأخاه صفة الخوف، لأن الله تعالى يعلم أنها شيء طبيعي كائن في نفس الإنسان، ومن هنا رد تعالى عليهما بقوله: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)

وهذا الكاتب الذي يوجد في مجتمع لا تعجبه كثيرا من إجراءات حاكميه وأساليبهم وسياساتهم وقراراتهم، ثم يحجم عن نقدها والتنديد بها خشية البطش والتنكيل وحفاظا على قلمه، أيكون إنسانًا جبانًا، أم أنه يؤثر السلامة حتى لا تضيع حياته؟ إن بعض الأغبياء وجدته

[1] – طه :٤٥

رأيته يومًا ينعت العقاد بالإنسان الجبان، لأنه فر إلى السودان خشية أن ينتصر الألمان بعد أن هاجم النازية ووضعته هي في قوائم المطلوبين للعقاب عام (١٩٤٣م) ومكث في السودان بضعة أسابيع قبل أن يعود إلى مصر.

وهناك من يفرق بين الجبن والخوف، وهناك من يجعل الجبن هو الخوف الدائم من كل شيء، أو الهروب من مواجهة أمر مهم ومحتم في الحياة، ومنهم من جعله أكبر مراتب الخوف.. وليس معنى مقالنا هذا أننا ندافع عن الخوف، الذي يتزيا به الإنسان، وهو يشاهد كرامته تضيع أمام عينه، أو ينتهك عرضه وهو شاهد عاجز، وإنما نزكي هذا الخوف الذي يحفظ للمرء حياته أمام ظالم أو طاغية لا يراعي حرمة للدماء والنفس الإنسانية، مادام في الأمر فسحة للانتظار والصبر والعمل والأمل في الفرج القريب..

وأنت تعلم وتقرأ سيرة العالم الجليل سعيد بن جبير، الذي راح ضحية لطاغية الأمة الجبار الحجاج بن يوسف الثقفي.

كان سبب العداء بين الحجاج وابن جبير، أن الأخير كان من هؤلاء العلماء والفقهاء الذين أيدوا وساندوا عبد الرحمن بن الأشعث، أحد قواد الحجاج في خروجه وانقلابه عليه.. لقد أوشك أن ينتصر عبد الرحمن وتكتب له الغلبة، إلا أن النصر في النهاية كان حليفًا للسفاح العتي، ولم يكن أمام ابن الأشعث إلا أن يفر، وأعلن جيشه الاستسلام.. فنادى فيهم الحجاج: أن يشهد الرجل منهم على نفسه بالكفر، ثم يُعلن التوبة ويبايع، وإلا قطع عنقه.. وما كان لابن جبير أن يبايع طاغية، أو أن يشهد على نفسه بالكفر، ففر من قبضته، وأخذ يتنقل من بلد إلى بلد، مدة عشر سنوات، حتى استقر به المقام في إحدى قرى مكة متخفيًا، ورغم مرور هذه السنوات الطوال إلا أن الطاغية الجبار كان يمتلئ غيظًا منه، ويتمنى لو أمسك به، حتى يروي ظمأ غيظه، ويشفي منه غليله الذي لا يشفى أبدًا، وكانت عيونه لا تكل ولا تمل في بحثها والتنقيب عنه في كل مكان، حتى تولى على مكة خالد القسري، الذي استطاع القبض على العالم الفقيه، بعد أن مل الفرار، وقرر أن يبقى حتى يلقى ما قدره الله له، وأفلح القسري في القبض عليه، وساقه مكبلاً إلى الحجاج في مدينة واسط، وتلفت ابن جبير لأصحابه قائلاً لهم:

ما أراني إلا مقتولاً على يد هذا الظالم، فلما صار عنده، نظر إليه في حقد، وقال: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، فقال: بل شقي بن كسير، فقال سعيد: بل كانت أُمِّي أعلمَ باسمي منك، قال: ما تقول في محمد؟ قال: تعني محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، قال: نعم، قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى، خير من بقي من البشر، وخير من مضى، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله، ولكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

ورحل شهيدًا رضي الله عنه، وهو من هو علما وفقها ومكانة وعبادة، وقد قال فيه ميمون بن مهران: لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض رجل إلا يحتاج إلى سعيد، وقال عنه الإمامُ أحمد بن حنبل: لقد قتل سعيد بن جبير، وما على الأرض أحد، إلا ومحتاج إلى علمه.. وكان ابن عباس إذا أتاه أهل الكوفة يستفتونه يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟ يعني سعيد بن جبير، وجاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن فريضة فقال: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني وهو يفرض منها ما أفرض.

هناك مواقف كثيرة لا ينفع معها وأمامها الجبن، وربما تخاف كثيرًا أمام مواقف لا ينفع أن تفر منها كالخوف من الموت، فمهما خفت منه فأنت ذائقه، وللخوف صور مختلفة، فأحيانًا يكون الخوف ضعف إيمان، وأحيانا يكون خوف على النفس، وهناك خوف على الغير، وهناك خوف على الدعوة، وهناك خوف على المبادئ.. المهم أنه موجود، لكن ليس في كل الحالات نعذره ونزكيه ونلتمس له المبررات، وفي نفس الوقت نقرر بأنه صفة إنسانية أصيلة، وللجاهلين أن يعذروا من يفر بنفسه من مواقف حرجة لو أنهم وُضعوا فيها لذابوا في أماكنهم وابتلعتهم الأرض من تحتهم.

بعض المؤلفين الكبار كان يكتب مقالاته باسم مستعار حتى لا يتعرض للغدر والعقاب، فهل نتهمه بالجبن وهو مبعث الحرية والثورة؟

نعم هكذا فعل فولتير، فقد أخرج العشرات من الرسائل والكتب الحرة بأسماء مستعارة ومزورة، لينجو من خطر الاعدام، وكانت هذه الرسائل تحطم الطغيان الحكومي والكنسي، وتدعو إلى الحرية والتسامح.!

وكذلك الأستاذ محمد التابعي كان يكتب مقالاته السياسية ونقده للحكومة والملك والأحزاب باسم مستعار (حندس).

أنصفوا أعداءكم

كان طه حسين يقول دومًا :(الحقد يُعمي)، وهي حقيقة النفوس الضعيفة القصيرة الناقصة التي يسوقها الحقد والغل والكراهية، لتنكر فضل أهل الفضل، وتنفي أي محمدة عن نفس وضعتها في مرمى كراهيتها، وصوبت إليها رصاصات غلها، لقد كان مما يُشهد لبعض المشركين في الجاهلية، شهادتهم للنبي ﷺ بالشرف والأمانة والخلق الرفيع، رغم عدائهم له وحربهم لرسالته، ليظل الإنصاف وحده سيد الموقف بعيدًا عن أي عصبية مذمومة، أو تحزب قبيح للرأي.

لكن المفزع في الأمر أن ترى بعض النفوس الكبيرة، التي يفترض فيها أن تكون عالية رائدة سامية، مشهود لها بالقدوة والإصلاح، والفكر والثقافة، والكتابة والرأي، تسقط في هذه الاختبار! اختبار الإنصاف والشرف والسمو، حينما يعلمون حقيقة خصومهم وما فيهم من الصدق والموهبة وشرف النفس، ومدح الآخرين، ثم يتهمونهم مرة بالزيف والكذب والتلفيق والادعاء لأنفسهم ما ليس فيهم، نعم حدث هذا مع الإمام الكبير السيد محمد رشيد رضا، لقد خاض الإمام رشيد حربًا حامية الوطيس ضد طلائع العلمانيين وأئمتهم، وكانت معركته الكبيرة ضد كتاب (الإسلام وأصول الحكم) ومؤلفهِ علي عبد الرازق، حيث أثار عليه الدنيا، وحرض ضده علماء الأزهر وقلب العالم الإسلامي كله على رأس المؤلف وكتابه، فلم يجد علي عبد الرازق وأنصاره شيئًا يدفعوا به أذى رشيد ويردوا عليه خصومته إلا أن يتهموه بالكذب على الإمام محمد عبده، حينما نسب إليه بيتًا من الشعر يمدحه فيه، وكان رشيد قد نشر هذا البيت يوم وفاة الامام والذي قال فيه:

فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا ** رشيدًا يضئ النهج والليل قاتم

وقالوا بأنهم يعزون رأيهم والشهود على ذلك إلى الثقات، ولكن رشيد لم يمهل تكذيبهم له فرد عليهم بقوله: ومن هم هؤلاء الثقات الذين لم يسمع بهم أحد منذ وفاة الإمام في عام (١٣٢٣هـ) إلى هذه السنة (١٣٤٥هـ).؟

وعلى جانب آخر هب طه حسين الذي كان من أنصار علي عبد الرازق ومؤيدًا لكل ما في كتابه من أفكار خارجة على الإسلام، ليؤكد أن البيت ليس من قول الإمام، وأن رأيه في رشيد قد تغير كثيرًا منذ نسب هذا البيت للأستاذ الإمام، ولكن للأسف فإن رأي طه حسين مردود عليه، ولا يمكن تصديقه أو قبوله، لأن رشيدًا من أكبر أعدائه وخصومه في معركة الشعر الجاهلي، وما قوله إلا تصفيه حسابات ومحاولة لتشويه نده والافتراء عليه وصورة فجة من صور الكيد الرخيص.. ورغم أننا أشرنا فيما سبق إلى إنصاف طه للعقاد لكن رشيد كان من جبهة أخرى هي جبهة الشيوخ الذين لا يطيقهم طه ولا يتصور ذكرهم.!

ويبقى التساؤل: ألا يستحق رشيد أن يقول فيه الإمام محمد عبده مثل هذا الكلام، أو أن ينعته بأكثر من هذه الصفات؟ وهو الذي كانت له جهوده المضنية والمضيئة في خدمة الدين والدعوة، وكان الرفيق الأكبر للأستاذ الإمام، الذي يعد أكثر الناس معرفة به وإلمامًا بقدراته ودوره وفضله؟ كما كان الإمام نفسه ممن يعتزون دومًا بالعاملين للإسلام وكثير المدح لهم، وقد أثر عنه أقوال مشهودة في بعضهم كتلك التي قالها في الرافعي رحمه الله!

ولعل ما وقع فيه علي عبد الرازق وطه حسين من الحقد والحسد على هذا التشريف الذي ناله رشيد من أستاذه وإمامه، هو نفس ما أصاب العقاد حينما مدح سعد زغلول كتاب وحي القلم للرافعي وقال عنه: (كأنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم)، إن العقاد الذي كان يعشق سعدًا لم يطق مثل هذا القول من سعد في غريمه، فلم يجد نفسه في بوتقة هذا الحسد إلا أن ينكر أن يكون صدر مثل هذا القول من سعد، وأن الرافعي هو من ألفه ونسبه لزعيم الأمة زورا.! ولكن المقربين من سعد ردوا عليه بأن سعدًا هو من قال ذلك.

ما أجمل أن نتغاضى عن أهوائنا، ونئد أحقاد نفوسنا، فتبقى ساحتنا نقية سامية نزيهة، ترفرف عليها رايات الإنصاف، فنقر الفضل لأهله، حتى ولو كانوا من أشد الأعداء وألد الخصوم.!

تصرف غير أخلاقي!

يمكنك وبكل سهولة وأريحية، أن تطلق على هذا العصر أنه عصر النذالة وانعدام المروءة والأخلاق.! ويتجلى ذلك أكثر ما يتجلى ونحن نرى المنحطون يطيلون ألسنتهم بالقبح والسوء في حق الضعفاء المغلوبين، الذين قُيدت أيدهم وكُممت أفواههم، وأصبحوا لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

تعلمنا من الأدب وعرفنا من صفات الفرسان، أن الإنسان الشهم الشريف النبيل هو الذي يرفض أن يجهز على جريح، ويأبى أن يُهاجم أعزلا، ويسوؤه أن يصدر حكمه على ضعيف، أو ينازل مغلولاً أعيته القيود.!

ولعل هذه الصورة القميئة تجدها بوفرة في دنيا الإعلام، وخلف الشاشات التي يديرها فجرة أفاكون درجوا على تزييف الحقائق ونشر الأباطيل، والنهش في لحوم الأبرياء المستضعفين وهم في قمة عجزهم وغيبتهم، ليعلنوا رحيل الشرف غير مأسوف عليه، وإذا كان هؤلاء في عصر العلم وزمن الحضارة والتقدم، فإن الجاهلية تُعلن بكل جرأة، أنها أشرف وأنبل من زمانهم حينما فشت فيها الشهامة والمروءة وأخلاق الفروسية السامية.

قرأت يوماً أن (عمرو بن معد يكرب) تقاتل مع أحد أعدائه من الأبطال الأشداء، وحينما كانا يتبارزان، ضرب عمرو سيف خصمه ضربة شديدة فكسره من نصله، فوقف ذلك الرجل ينظر إلى عمرو مذهولاً خائفاً بين يديه، فأخفض عمرو سيفه وأدخله في غمده وقال للرجل: ليس من المروءة أن أقتلك وقد أصبحت أعزلاً ثم تركه خلفه ومضى.!

وما زلت أتذكر الهزيمة المرة التي تجرعها المسلمون في أحد، فقُتل بعضهم وتفرق البعض الآخر متخفياً في الجبال، وجاء أحدهم إلى أبي سفيان وقال له: يا أبا سفيان إن يثرب الآن سهلة المطلب والمنال غير منيعة، فهلم إليها، فقال له أبو سفيان: وكيف نُهاجم يثرب، وليس فيها سوى النساء والأطفال من بني عمِنا؟

ما هذه القيم العظيمة التي تمثل جداراً وحداً فاصلاً لا يجوز هدره أو تعديه، مهما كان الخلاف ومهما كان العداء.. وأين هي اليوم من دنيانا وحياتنا وأخلاقنا؟! ألا ما أحوج الكثيرين اليوم

أن يتدبروا هذه المواقف، ويحاولوا تطهير أنفسهم من هذه الأحقاد التي تشوه صورة الإنسان، بل ما أحوجنا أن نخجل من هذه النفوس حينما تفوقت عليها الجاهلية في أشكال المروءة.

لقد كانت هناك مواقف مبهرة بينت معادن الرجال ونبل أخلاقهم، وأظهرت بجلاء كيف يغلب الإنسان الشريف نفسه أن تأتي بما تخجل منه مروءته، ولقد استطاع الاستاذ العقاد أن يكون واحداً من هؤلاء حينما كانت المعركة شديدة بينه وبين الرافعي، وكانا يكيلان لبعضهما قذائف مدوية من التقريع والنقد اللاذع، ويرحل الرافعي مبكراً إلى رضوان ربه ، وهنا يسكت العقاد عن أي شيء يمس الرافعي، ولا يذكر أو يكتب عنه شيئاً، أو يُشر إليه بسوء، وتلك ميزة خلقية عرف بها العقاد ، حتى حينما أقدم بعض تلامذته وأشعلوا المعركة من جديد، وهاج عليهم تلامذة الرافعي مدافعين منافحين بمقالات ملهبة ساخنة، ظل العقاد صامتاً لا يتكلم.! حتى استطاع الأستاذ الزيات أن يأخذ منه حديثاً شفوياً، أخبره فيه بتقدير الرافعي له وأنه أي الرافعي يأخذ على العقاد محاولة انتقاصه، فرد عليه العقاد بأنه لم ينتقص الرافعي كأديب، وأنه اعترف بمقدرته الأدبية في بعض ما كتب عنه، لقد مات الرافعي وصار في دنيا العدم، فعف القلم الشريف أن يهيل التراب على خصمه، أو ينتقصه بحرف من مداده، لأنه غير موجود، ولن يكون موجوداً ليدافع عن نفسه ويرد اتهامات خصمه.!

وبعد قيام ثورة ٥٢ أو انقلاب ٥٢ قامت المحكمة الثورية باستدعاء الأديب الكبير (محمد حسين هيكل) رئيس حزب الأحرار، ليشهد شهادة تدين غريمه (فؤاد سراج الدين) أبرز رموز حزب الوفد، وما بين الوفد والاحرار عداء كبير وخصومة عنيفة، وكانت فرصة كبيرة لهيكل حتى يشفي غليله وينتقم لحزبه ويشوه صورة خصمه، لكن هيكل باشا فاجأ من ظنوا فيه تدني الخلق وصغار النفس، فأعلن في صراحة مدوية بأن منابر المجالس النيابية لم تشهد نائباً ولا شيخاً في ذكاء فؤاد سراج الدين وبراعته، إلا في النادر من الرجال، ولما انتهى من شهادته هنأه بعض حوارييه في هذا الموقف الشهم فقال له: وهل كنت تنتظر مني غير ذلك؟ أأحارب خصماً وهو في مأزق؟!

وإذا كان هيكل القديم يبهرنا بأخلاق الفارس النبيل، فإن هيكل الجديد لم يكن على مستوى الحدث حينما ألف كتابه عن قضية (مصطفى أمين) التي اتهم فيها بالتجسس، وسُجن بسببها تسع سنوات في عهد عبد الناصر، حيث كانت بينهما حساسيات، خصوصاً بعد خروج مصطفى أمين من السجن، وهو ما جعل الكثيرين يقدرون كتاب هيكل وتصرفه، بأنه عمل غير أخلاقي، لأن مصطفى أمين رحل عن الحياة، وغير موجود حتى لينافح عن نفسه.!

إن هذه الاخلاق السامية والتصرفات الرجولية، لا يقوى عليها إلا الأوفياء من الرجال أصحاب الخلق الرفيع، والنفوس الحرة والطباع السامية، والتي مثلها أصدق تمثيل شيخنا المبجل محمد الغزالي رحمه الله، الذي قال لنظام عبد الناصر عندما طُلب منه أن يُهاجم الاخوان المسلمين في فترة خلافه معهم: ليس من أخلاقي أن أُجهز على جريح.! ولما قالوا له: إنهم فصلوك من الجماعة قال: إذا استقووا عليّ في وقت ضعفي، فلن أستقوي عليهم في أيام ضعفهم.!

لقد كان الشيخ الغزالي رحمه الله شديد الحساسية من هذا الخلق، ويرفض أن يصدر من عالم دين، حيث طالب بطرد الشيخ شاكر من زمرة العلماء لفتواه الجائرة بإباحة قتل الإخوان المسلمين.

ونفس المحنة والضغط الناصري الخسيس تعرض له الأديب والمفكر الكبير خالد محمد خالد رحمه الله، فلم يقل في سموه عن صديقه وقرينه محمد الغزالي، لقد حاول زبانية عبد الناصر قديماً أن يرغموه على سب الإخوان والهجوم عليهم ونقدهم، لأنه مفكر مسموع الكلمة وأديب له تأثيره، لكنه وهو الذي كان من معارضيهم قبل الثورة، كان شريفاً سامياً، فبعد أن دخلوا السجون وامتحنوا في دينهم، رفض هذا الطلب ولم يخضع للإغراء ولا للتهديد وأعلن موقفه في صرامة وإصرار وقال:

"لقد ناقشت الإخوان ونقدت فكرهم وسلوكهم، يوم كان بعض قادة الثورة من مجاذيبهم! ويوم كانوا من القوة بمكان، أما اليوم وهم في المعتقلات والسجون تحت وطأة التعذيب، فقد

أوصانا الرسول "ألا نجهز على جريح" ومثله فعل العلامة الفخم الدكتور محمد عبد الله دراز الذي كان مثالا للعالم الأزهري الصادق الحر النقي..

ألا إن للشرف معنى لا يقدره إلا الرجال، ولا يتحمل عبئه إلا الكبار، ولا يتذوق سموه إلا أصحاب المعالي.. الذين يكبحون جماح أهوائهم ويردون النفس عن غلوها وباطلها على حساب الحق والحقيقة.

خصوم لكن شرفاء!

كان العقاد خصمًا لطه حسين ونداً له في ميدان الأدب والفكر، وطه حسين هو الذي لم يسلم من نقده أحد، ولم يترك أديباً أو عالماً أو مفكراً إلا وكان بينهما معارك وسجال، ورغم هذه الندية والشراكة في المهنة الواحدة، التي تفسح بينهما مجال الغيرة والنطاح، إلا أن هذه العوامل كلها لم تثن طه حسين أن يقدر العقاد، ويمنحه مكانته اللائقة به، ويعرف له مقامه الأدبي والفكري الذي حاول البعض أن ينكروه لخصومتهم معه.

ولم يكن الخلاف بين الأستاذين أدبياً فكرياً فقط، وإنما امتد ليشمل عالم السياسة أيضاً، فكان في التقائهما بعد المشرقين ليضربًا لنا المثل في ترسيخ ثقافة الاختلاف، التي تقود للتنوع والتعدد لا للتفرق والتشرذم، وهو ما عبر عنه (طه حسين) بقوله: نحن قوم نعرف كيف نختصم دون أن تفسد الخصومة رأي واحد منا في صاحبه؟ وقد أعلنها وكأنه يعلمنا أن نتحسس أقدار الناس وحسناتهم، في الوقت الذي نتغنى بسيئاتهم ونعدد هناتهم، وهي تعكس في المقام الأول سلامة النفوس ونقاء الصدور، ونظافة الأفئدة وتوازن العقل وانضباط المشاعر.!

كان من الممكن أن تعرض عن ذكر أندادك وخصومك بما يسوء، لكنك تكون فرحًا مسرورا بمن يتولى عنك المكيل لهم، فيطيل عليهم لسانه ويرسل عليهم نبواته، لكن طه حسين ضرب لنا المثل في عفة نفسه، وعلمنا أن يكون الحق أقرب إلى نفوسنا من أهوائنا، مهما كانت أهواءنا تميل لها نفوسنا وتغرد لها قرائحنا، وهو ما حدث يومًا حينما دخل عليه د. (عبد الرحمن بدوي) وكان في زيارته مجموعة من تلاميذ العقاد المقربين، وهنا لم يستطع الدكتور بدوي أن يلجم لسانه عن تقريع العقاد، وفتح النار عليه مغتاباً: إنهم تلاميذ العقاد! ما الذي أتى بهم إليك يا

أستاذنا؟ العقاد هو أكثر الناس غرورا وادعاء، وهو لا يفقه أي شيء لا في الدين ولا الفلسفة، ولكنه سليط اللسان فقط والناس بتحاشونه لذلك، والذي يقرأ كتب العقاد في الفلسفة الإسلامية، يجدها مليئة بالأخطاء، والذي يقرأ السلسلة المسماة بالعبقريات، يجدها مليئة بالمغالطات والسفسطة، ولذلك فالذين يترددون على صالونه لا يذهبون إلا مرة واحدة، وبعد ذلك يهربون منه.!

وأمام هذه العبارات الشديدة التي آلمت نفوس التلاميذ، لأنها مست أستاذهم وقدوتهم، ظهر الضيق على وجه طه حسين، فتراجع في مقعده ثم انحنى للأمام ثم أمط شفتيه وقال: لا لا يا عبد الرحمن، إنك تظلم الرجل، وتعطي لتلامذتك نموذجًا سيئًا للنقد أو للحكم على الرجال، إن العقاد يا سيدي رغم ما بيننا، أكثر الناس علما بعلوم القرآن واللغة، وأقدر مفكرينا على خوض بحار اللغة والنجاة منها، ثم العودة إلينا بصيد سمين ثمين، لقد ظلمته يا عبدالرحمن، إن العقاد قاس في أحكامه، ولكنه يأخذ نفسه أيضا بهذه القسوة تماما كما يأخذ غيره، وهو لا ينقل شيئاً إلا إذا كان متأكدًا منه، وهي خصلة أحترمها كما أنه لا يدعي رأيا لنفسه، وإذا عرض رأيًا فإنه ينسبه لصاحبه، أما أنه جاهل فإني أخالفك تماما، وأما أن رواده قليلون، أو إذا زاروه مرة لم يعودوا إليه، فذلك مالم أعرفه عنه.! وانتهى هنا إنصاف (طه حسين) الذي قدره تلامذة العقاد وأكبروه فيه، وندموا على أنهم لم يكونوا يعرفونه منذ زمن بعيد.

وأمام هذا النقاء، لا يسع المرء إلا أن يبصق على من يستخدمون كل إمكاناتهم في تشويه خصومهم السياسيين أو الفكريين، حتى لو قدر لهم أن يتحالفوا مع الشيطان نفسه فلن يتأخروا في ذلك، فالمهم أن ينتصروا لأنفسهم ويثبتون للدنيا كلها أن خصمهم ضئيل حقير ضعيف مغلوب مهزوم ضال خبيث، إلى غير ذلك مما يعرف من ألوان السباب والشتام.

ثم يقول طه في موطن آخر: (لقد هاجمت العقاد في غير موطن من مواطن الخصومة، خاصمته في السياسة وخاصمته في الأدب، وخاصمته في السياسة أيضا، ولكن هذه الخصومة لم تغض من مقدار العقاد في نفسي.

وما أظن أن بين لدات العقاد وأترابه ومعاصريه، من يقدره مثل ما أقدره، أنا وأكبره وليس يعنيني أن يكون رأي العقاد فيّ كرأيي فيه، وإنما الذي يعنيني أن أقول الحق وإن كرهه الكارهون، وإن كرهه العقاد نفسه، والذين عاصروا خصومات العقاد، يذكرون من غير شك أني أثنيت على أدبه في جريدة السياسة، حيث كانت الخصومة بين الوفد والدستوريين كأعنف ما تكون الخصومات، وقد كانت الحرب سجالا بيني وبينه حربًا ولم يمنعه ذلك من أن يقوم قيام الرجل الكريم في مجلس النواب، يدافع عني حين كان الوفديون جميعًا علي حربًا، ولا أعرف أن الخصومة بين العقاد وبيني قد انقطعت، فما دام كلانا يكتب فالخصومة بيننا ممكنة..) ومهما كانت هذه الخصومة كائنة وقائمة، إلا أنها كما رأينا لا يمكن أبدًا أن تتخلى عن ساحة الشرف وميدان الأدب فهي فيه قائمة على أصولها من الانصاف والمصداقية مهما تعددت مواقف الخلاف أو طالت أزمانها.

منذ أيام قرأت لأحدهم قولة منكرة، وافتراءً صريحاً على أمير الشعراء أحمد شوقي وتوظيفاً للأدب في حرب غير شريفة، ووضعاً للتراث في موضع لا يليق به، إنه يقول: إن شوقي أمير الشعراء قد وصف (حسن البنا) رائد الإرهاب في مصر قصيدة من قصائده وهي التي يقول فيها:

ظهر الثعلب يوماً في ثياب الصالحينا * ومشى في الأرض يلعن، ويسب الكافرينا

ويقول أنا الإمام لجميع المؤمنينا * فاطلبوا الديك يؤذن لصلاة الفجر فينا

فأجاب الديك:

عذراً يا أضل الفاسقينا * مخطئ من ظن يوماً أن للثعلب دينا

"تلك هي الوصية التي تركها أحمد شـوقي لنا، أراد أمير الشعراء كغيره من بعيدي النظر، أن يلفت انتباهنا إلى الكارثة التي تحدق بالوطن، لكننا كنا في غيبوبة، نأمل أن نكون قد أفقنا منها"

والحق أن الكارثة الكبرى هي أن يبتلى الوطن بأمثال هؤلاء، من معدومي الضمير ومزوري الأدب والتاريخ، والمتقولون على الناس مما هم منه براء، فحسن البنا الذي شهد له القاصي

والداني وأثنى عليه أعداؤه قبل أحبابه، فلم يكن لشوقي صاحب الحكمة والبصيرة، أن يتهم رجلا يجمع الكبراء على نجابته وعظمته، وأما قصيدته فقد نهج فيها الى الرمزية، فالثعلب دعا الناس أن يهجروا أكل الديكة، فالديك طائر مفيد في إيقاظ العباد لصلاة الفجر، وعندما وصل للديك قول الثعلب في نصح الناس قال الديك:

مخطئ من ظن يومًا ... أن للثعلب دينا

فرمز في الثعلب عن المكر، وفي الديك عن الطيب

فـ إِنَّهُم قَالوا وَخيرَ .... القَولِ قَولُ العَارِفِينَا

من يأمن مكر الذئب سيبدأ به أولا.

كما أن المدلس اختصر الأبيات، حتى تظهر برمزيتها أنها ترمي إلى أحد بعينه ولو أنه ساق القصة كاملة لأدرك أركان القصة التي نظمها شوقي في أبياته وأنها لا تريد أحدا بعينه فهي قصة الثعلب والديك الثعلب رمز المكر والخداع والديك رمز الطيبة والحكمة، أما حسن البنا فنحيل هذا المبهت، على شهادة من هو أكبر وأعظم من (شوقي) وهي شهادة الأستاذ (محمد مصطفى المراغي) شيخ الأزهر في ذلك الوقت، وأكبر قامة علمية يحفظ التاريخ مواقفها ومكانتها، حتى قال عنه العقاد يوماً: لو كان هناك أحد يستحق لقب الأستاذ الامام بعد الأستاذ الإمام محمد عبده، لكان الاستاذ المراغي، فحين كلف الأستاذ حسن البنا بإصدار (مجلة المنار) بعد وفاة مؤسسها العلامة المجدد محمد رشيد رضا من ورثته، كتب الإمام المراغي مقدمة لأول عدد أصدره البنا، فكان مما قال فيه: (والآن قد علمت أنَّ الأستاذ حسن البنا يريد أن يبعث (المنار) ويعيد سيرتَها الأولى، فسرَّني هذا، فإن الأستاذ البنا رجل مسلم غيور على دينه، يفهم الوسط الذي يعيش فيه، ويعرف مواضع الداء في جسم الأمة الإسلامية، ويفقه أسرار الإسلام، وقد اتصل بالناس اتصالاً وثيقًا على اختلاف طبقاتهم، وشغل نفسه بالإصلاح الديني والاجتماعي على الطريقة التي كان يرضاها سلف هذه الأمة) أرأيت كيف كانت نظرة أعظم شخصية في مصر وقتها؟ وأكبر قاماتها العلمية في حسن البنا؟ ثم أتظن لو

أنه بهذا القبح، أكان مثل المراغي يسطر فيه هذه السطور التي لا تكتب إلا في مدح العظماء والابطال؟!

وذُكر أن أحدهم جاء بعد معركة صفين إلى معاوية بن أبي سفيان وقال له: اصطنعني، إني خبير في أمور الحروب، وأعرف كيف أتعامل مع شؤون زوارك وندمائك، ولقد جئتك من أجبن الناس وأبخلهم وألكنهم، فقال له معاوية: من تقصد؟ فقال الرجل: أقصد علي بن أبي طالب. فقال له معاوية: كذبت يا فاجر، أمَّا الجبن فلم يك قط فيه، وأمَّا البخل فلو كان له بيتان، بيت من تبر وبيت من تبن لأنفق تبره قبل تبنه، وأما اللكن فما رأيت أحداً يخطب أحسن من علي إذا خطب، قم قبَّحك الله.

وذُكر أن الأديب توفيق الحكيم وقعت بينه وبين الأديب طه حسين خصومة، فقرر طه حسين أن ينقل تلك الخصومة إلى القُرّاء عبر نشرها في الجريدة التي كان يكتب فيها آن ذاك، فلما علِم توفيق الحكيم بهذا الأمر وسّط أحد الشخصيات ليرد طه حسين على قراره، فما كان من طه حسين إلا أن قبل توسط تلك الشخصية، ولم يكن الحكيم يخشى خصومة طه حسين، بقدر ما كان يوّد أن يبقى الود والاحترام بينهما، أما اليوم، فمعظمنا مجرد من شرف الخصومة، ويفجر من أول دقيقة في ملاحاته، وما يروى أن محمد بن الحنفية أخا الحسين بن علي بن أبي طالب، كان يتناول الطعام حينما بلغه موت معاوية، فسقطت اللقمة من يده، فسأل: من بويع بالخلافة بعده؟ قالوا يزيد ابنه، فقال: فتى قريش وفارسها، وعاد لتناول طعامه قرير العين مع أن يزيد هو نفسه الذي قتل الحسين في عهده، وقد استدل بهذه الحادثة على أن الخلافات السياسية بين علي بن أبي طالب وأبنائه من جهة، وبين معاوية وأبنائه من جهة أخرى لم تنع أحدهم من أن يكون حسن الرأي في الآخر، ولم يذهب أحدهم إلى تكفير الآخر.

لا تجعلوا أهواءكم تقودكم

إن معرفتنا بالأشخاص وانطباعنا عنهم لا ينفصل بحال عن حكمنا على علمهم وذواتهم وإبداعهم وحكمتهم وموقفنا منهم.

وتلك آفة كبرى لا توافق استقامة النفس واعتدالها وإنصافها..

فمهما كنت تبغض شخصا أو تكرهه أو تستثقل وجوده ولا تطيق قربه، فإن الانصاف يجب أن يكون شعارك الذي لا ينفك عنك أبدا، في حكمك عليه وتقييمك لذاته، ورأيك في عبقريته وإبداعه، نعم يجب أن ينفصل الحكم عليه انفصالا تاما عن هواك ومزاجك.

لقد أعجب طه حسين بأحمد زكي باشا وكان تطربه محاضراته في الجامعة المصرية حين انسب إليها طالبا في صفوفها، كان يعجبه كثيرا ما كان يسمعه منه، وكان كان في هذا الوقت ذلك الازهري الذي لا يعرف إلا الصرف والنحو والتوحيد والمنطق والفقه والأصول، وشاء الله أن يلتقي بزكي باشا بعد افتتاح الجامعة بأيام، فانصرف عنه كارها له مبغضا لحضرته، وذكر غلامه الأسود الذي كان يصحب طه ويدخل معه قاعة الدروس حينما منعه أحمد زكي باشا فلما حدثه طه حسين قال له زكي باشا: وماذا تريد من استماع العلم إذا كان الله لم يرد لك أن تسمعه وحدك.!

وهنا قال طه هنالك هززت له كتفي، وخرجت من غرفته"

ثم يقول طه وهنا الشاهد والإشارة إلى ما في مقالنا: "كنت منذ ذلك اليوم أسمع لدروس هذا الرجل راضيا عنها وكارها لصاحبها"

ولقد قال الله تعالى: (ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى) أي: لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد، صديقا كان أو عدوا، ولهذا قال: (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أي: عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه.

وللأسف.. إننا نجد أن أكبر عللنا نحن العرب والمسلمين، أننا نبني ثقافتنا وحكمنا على الأشياء من حولنا على الإشاعة والاستماع للقيل والقال، دون التحري والتثبت مما يثار، حتى نخرج في النهاية بحكم جائر يخاصم الصواب.

انظر مثلا لعلمين من أعلام أمتنا، ومصلحين من أعاظم مصلحيها وزعمائها، وهما الإمام محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني.!

فإنك لو ذهبت مثلا وسألت قطاعا عريضا من بعض الشرائح

التي غررت بها السلفية المتشددة عن الرجلين، لهالك ما تجد وتسمع من تهم وافتراءات مفزعة يلصقونها بأكثر من كان غيرة وحبا لدين الله تعالى، ولكنهم ضحايا أقوال فاسدة وآراء مأفونة، من قوم جهلوا حقيقة الرمزين الكبيرين، وعادوهما عداءًا مستفزًا ممقوتا.

وأجزم أنك لو قطعت رقعة من مقالات جمال الدين في العروة الوثقى وأطلعت عليها أحدهم، أو أعطيته صفحة من تأويل الإمام محمد عبده وتفسيره للقرآن الكريم، لقال لك عن الأول بأنه إمام الثائرين المصلحين، وقال عن الثاني بأمه إمام المهتدين وأبصر العالمين وسيد العارفين.

لكن هذا الإصرار يتلاشى حينما يعلم أنهما من أقوال المامين اللذين كان يتنكر لهما بالأمس.

لكن يكفيك أنك استنطقت الحق على لسانه وانتزعت منه الإنصاف الذي يفر منه دون جدال أو نكران.!

وهو الأسلوب الذي يجب أن نتبعه دوما مع من يتنكرون للحقيقة والحق جهلا به أو بغضا له.!

روى عن أحد النحاة، واسمه أبو على الفارسي، أن بيته كان في طريق المتنبي إلى عضد الدولة. وكان أبو على هذا يستثقله ولا يرتاح إلى ما يأخذ به نفسه من الكبرياء. وكان ابن جنى كثير الإعجاب بالمتنبي يكره من يذمه ويحط منه ويسوئه إطناب أبى على في ذمه.. واتفق أن أبا على هذا قال يومًا: «اذكروا لنا بيتًا من الشعر نبحث فيه».

فبدأ ابن جنى فأنشد:

حلتِ دون المزار فاليوم لو زر* تِ لحال التحولُ دون العناق**

فاستحسنه أبو على واستعاده، وقال: لمن هذا البيت فإنه غريب المعنى؟

فقال ابن جنى للذي يقول:

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لي* وانثنى وبياضُ الصبح يُغرى بي**

فقال: والله هذا أحسن فلمن هذا؟ فقال: للذي يقول:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى*** مضر كوضع السيف في موضع الندى

فقال: وهذا أحسن والله! لقد أطلت يا أبا الفتح فأخبرنا من القائل؟ قال: هو الذي لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح فعله وزيه! وما علينا من القشور إذا استقام اللب؟ قال: أظنك تعنى المتنبي؟ قال: نعم، قال: والله لقد حببته إليّ

ثم تأمل هذا الموقف..

"قال عبد الله بن المبارك: قدمت الشام على الاوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي يا خراساني من هذا الذي خرج بالكوفة يعني أبا حنيفة فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئته يوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم وامامهم والكتاب في يدي فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة منها وقعت عليها قال: النعمان بن ثابت فما زال قائما بعدما أذن حتى قرأ صدرا من الكتاب ثم وضع الكتاب في كمه، ثم اقام وصلى ثم اخرج الكتاب حتى أتى عليها فقال لي يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا قلت شيخ لقيه بالعراق فقال هذا نبيل من المشايخ اذهب فاستكثر منه.

قلت: هذا أبو حنيفة الذي نهيت عنه.!

فلما اجتمعا بمكة جاراه في تلك المسائل، فكشفها له أبو حنيفة بأكثر مما كتبها عنه ابن المبارك، ولما افترقا، قال الأوزاعي لابن المبارك: غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله، وأستغفر الله تعالى لقد كنت في غلط ظاهر، الزم الرجل فإنه بخلاف ما بلغني عنه"

لمن تهدي نفسك؟!

احذر فهديتك تمثل شخصك، إن كان معك في هذه الأيام شيء تهديه.

نعم فالهدية تحل محل صاحبها، والاعتزاز بها وإكرامها لا يعني الإعجاب بها كما يعني في المقام الأول تقدير صاحبها والاعتزاز به.

أذكر أنه في بعض المظاهرات التي كانت تحدث أيام حكم مبارك، كان الأستاذ محمد عبد القدوس من أكثر المشاغبين ومن أسبق المتظاهرين في كل مناسبة صغرت أم كبرت، حقيقة كان رجلا شجاعًا، وفي عقب بعض التظاهرات كتب مقالا في صحيفة آفاق عربية يبدي حزنه

على ضياع مصحف صغير قد وقع منه في المظاهرة، وطالب من يجده أن يرده إليه، لأنه عزيز جدا في نفسه، وأثير لدى قلبه، فقد كان هدية من الأستاذ عمر التلمساني رحمه الله إليه.

كانت صدمة كبيرة لفولتير حينما كان يتفقد سوق الكتب المستعملة، فإذا به يجد كتابًا له كان قد أعطاه لصديق له وكتب عليه إهداءه، فاشتراه مرة ثانية وأهداه لصديقه مرة أخرى وعلمه درسا بالغا في الوفاء والاحترام والتقدير.

وكان الأستاذ إحسان عبد القدوس يرفض أن يهدي كتبه إلى أحد لأنه لا يرضى أن تهمل هديته التي تعبر عن شخصه ونفسه، وتُترك بلا قراءه لأنه كان نفس التصرف الذي يُبديه مع كتب الأخرين التي تُهدى إليه، ومن ثم لم يرغب أن يُعامل بما يُعامِل به غيره.!

وطه حسين كان يصرح بأنه من كثرة ما يهدى إليه من الكتب، فإنه لم يجد لها مكانًا يضعها فيه إلا بانيو الحمام، وهو ما كان يشكل خلافًا كبيرًا بينه وبين زوجته.

ومن طرائف الإهداءات أن المستشار الهضيبي مرشد الإخوان، حينما التقى بفاروق ومنحه القصر صورة للملك، أخذها الهضيبي ولم يمزقها أو يرم بها في اليم، وإنما أخذها فعلا وعلقها في بيته ولكن في الحمام.! لأنه رأى أن هذا هو المكان الأليق بصورة فاروق.

كثيرًا ما أقلب في كتب أبي الصفراء، التي كانت من عصر الأربعينات والخمسينات، لأجد بعضًا منها أهداه إليه أصدقاؤه، ويصاحبها جمال لا أعرف سره أو مصدره.!

وفي لقائي الصحفي بالدكتور والعالم الكبير عبد الصبور شاهين أهداني كتابه (علموا أولادكم القضية) ممهورًا بتوقيعه الذي أعتز بخطه وإهدائه رحمه الله، والعلامة الكبير دكتور محمود عمارة وبحكم قربي منه، كان يهدي إلي كل كتبه، أو بالأحرى كان لابد أن تكون لي نسخة محجوزة من كل كتاب له، لكنها للأسف بلا توقيع فليس من المعقول أن يوقع اسمي وإهداءه على كل كتاب، لكنها بلا شك عزيزة في النفس حتى وإن كانت مجردة من التوقيع، لأنني كلما رأيتها تذكرت يده الكريمة رحمه الله وهي تهديني إياها.

وكان رحمه الله تهدى إليه بعض الكتب من الباحثين الصغار، فلم يكن يردها بل كان يحاول أن يستثمرها في عملية تدوير ثقافية نافعة، فكان يعطيها لطلاب العلم ويقول لهم: اقرؤوا هذه

المجموعة وأعطوني إياها بعد الانتهاء منها، وفي بداياتي العلمية وأنا طالب، كثيرًا ما كان يهديني هذه الكتب التي أهديت له حتى أستفيد منها.

أما عن أصدقائي.. فهم يعرفون حُبي وشغفي بالكتب، وأن أفضل هدية يقدمونها لي هي الكتاب، وهذا يسعدهم كثيراً، حيث لا يتجشمون عناء في شراء ما يبهظ ثمنه من الهدايا، فسعر الكتاب لا يكلفهم شيئاً، أما أنا فيخونني التقدير حينما أهدي أحدهم كتاباً، وأظن أن فرحتهم به تعادل فرحتي، وكثيراً من الخطّاب يأتني أحدهم فيسألني: بماذا أهدي خطيبتي، فأول شيء ينطبع في ذهني هو الكتاب، فيمد شفتيه متعجبًا.!

ومرة أهديت كتابي (صامدون في وجه الإحباط) لزميل لي في العمل، وشاءت الظروف أن ينتقل إلى مكان آخر، فجمع كل أغراضه ومستحقاته من مكتبه وتركه لمكتب آخر، ولم يترك أي شيء يخصه إلا شيئًا واحدًا وهو كتابي، وكأنه يوصل لي رسالة أنك كتابك لا قيمة لكما، وأنكما من المهملات، وهو الموقف الذي كان لابد أن ألقنه فيه درسًا شبيها بدرس فولتير لصديقه، إن لم يكن أشد وأقسى.

وما أروع أن يهدي الرجل منا كتابا لطالب علم فيكون هذا الكتاب فاتحة خير عليه، أو نقطة تحول في حياته، أو سببا من أسباب نبوغه، أو يكون اللقمة الأولى التي يشتهي بعدها وعن طريقها صنوف العلم والمعرفة.

ويحكي لنا شيخنا الدكتور (يوسف القرضاوي) كيف كان للإحياء دوراً كبيراً في ثقافته وصفاء روحه وتهذيب نفسه ،حينما ارتبط به في وقت مبكر فيقول: " كنت في الخامسة عشر من عمري بعد أن أنهيت السنة الأولى من القسم الابتدائي بمعهد طنطا ، وكان عندي نهم القراءة في غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر، وكانت قراءاتي في طنطا – خارج الدراسة – في كتب الأدب وخصوصاً أدب المنفلوطي في نظراته وعبراته ورواياته التي كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبي، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطي في دار الكتب بطنطا، شبه بالية لكثرة تقليبها في الأيدي، أما قراءتي في قريتي (صفط تراب) فلم يكن فيها دار كتب، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده في مثل تلك القرى ، وفي ذلك العصر ، لهذا حين أردت

أن أقرأ وجدت كتب التصوف هي المتاحة لي وشاء القدر أن يهيئ لي كتاب (إحياء علوم الدين) فقد كان يقتنيه جار لنا من نبهاء أهل القرى الذين كان لهم حظ من الاطلاع، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء ، وكان تلميذاً لأحد مشايخ الطريق، ثم استقل بطريقة قوامها: العبادة والذكر ثم قراءة الإحياء، وشعارها الذي يحفظه مريدوها: من جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده ، فإن كان ولابد من ذكر غيره ، فليذكر الآخرة ، وليذكر الصالحين !

فهذا ما جعل جارنا الشيخ (بيومي) رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب الإحياء، الذي أمسى غذاءنا وفاكهتنا عصر كل يوم في إجازات الصيف، وخصوصاً: ربع المهلكات وربع المنجيات منه، مع تحفظي شخصيا على بعض ما فيه من غلو، ولم يكن ملائماً لطبيعتي، ولكني كنت أتأثر بما فيه من رقائق، وترتعش جوانحي، ويترقرق دمعي، وهذا دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله.

ولما رآني الشيخ بيومي حريصاً على الكتاب، تركه لي هدية ، وقد بقي عندي حتى أني اصطحبته معي إلى المعتقل سنة ١٩٤٩م ." [١]

الإنسانية فوق كل شيء

الإيمان بالإنسانية صورة راقية من صور المروءة والخلق النبيل، فهي في نظر العقلاء والأكياس فوق كل شيء، ومن يقدرونها ويعظمون مكانتها أناس متحضرون، وقمم سامقة تعتز بهم الدنيا، ويزين وجودهم عالم البشر، الذي أوشك أن تنعدم فيه معنى الإنسانية.

إنهم يعظمونها في صدورهم، ويرون لها مكانة عالية في نفوسهم، ويؤمنون إيمانًا جازمًا ويؤكدون أنها لا دخل لها ولا ترتبط ألبته، بما يعترض الإنسان كل يوم من حوادث العداء والخصام والبغض والتحدي والمنافسة والصراع بينه وبين غيره من بني البشر، فلتعادِ من شئت، ولتخاصم من شئت، ولتنافس من شئت، ولتبغض حتى من شئت، لكن تبقى الإنسانية هي الإنسانية، قائمة شامخة عظيمة تحتل مكانتها من نفسك، ومساحتها من قلبك، فمهما جار عليك الناس، ومهما ظلمك الظالمون، لا يجوز أبدًا أن تنسى إنسانيتك، وتعامل بها كل من حولك، حتى الذين آذوك وأساؤوا إليك.

---

[١] – الحياة الربانية والعلم – يوسف القرضاوي

كثير ما أختلف مع بعض الأشخاص الذين يباينون فكري وتوجهي ومسلماتي وإيماني، وقد لا أخفيك معترفًا أن هذا الخلاف أو الاختلاف، قد يقود أحيانًا للكره والبغض، لكنني لا يسعني إلا أن أنحني لهم حينما أدرك تقديسهم للإنسانية، ويبلغني عنهم موقفًا أعلوا فيه من معانيها وقيمها، طارحين خلف ظهورهم، ما تلمسوه من عداء وبغض وخصام.

بل لا أرى حرجًا لو خرجت على الدنيا كلها، لأكتب عنهم بقلمي، وأشيد بأخلاقهم وأدبهم ورحمتهم وسموهم، حينما علمونا معنى الشرف، ومعنى المروءة، ومعنى الرجولة الحقة.

والحق أن الدكتور (طه حسين) يُعجبني كثيرًا في هذا الميدان، ولا نخالف الحقيقة لو قلنا: إن الرجل كان إنسانًا بكل المقاييس، وبكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، كان يبسط يده بالبر والخير لكل الناس وأولهم أعداءه وخصومه، كان دائمًا ما يثبت حضوره في قائمة المروءة، ولائحة الإنسانية، ليكون أول الأسماء البارزة فيها، والحريصة أن تنال شرفها وسؤددها.

ربما أتيح للرجل أن يتشفى في خصومه، أو أن ينتقم منهم، لكنه أبدًا كان عاليًا راقيًا سمحًا شهمًا عظيمًا رجلاً.

أرأيت ما فعله فيه الرافعي؟ وكيف كال له السباب والقذف العنيف فيما جرى بينهما من معارك أدبية؟ أرأيت ما سجله عليه في كتابه (تحت راية القرآن)؟ إن كنت لا تدري.. فاذهب هناك لترى كيف سلخة وجزره، هل تتوقع بعد ما تعرفه من هذا السباب، أن يكون في قلب طه حسين بعض لطف أو بصيص من رقة تجاه الرافعي؟ ذلك الرجل الحاد العنيف الذي رماه بالسفه والحماقة وتخلف الذهن والإلحاد والتحذلق والجهل والكفر والاستهزاء بالأديان، وغير ذلك من التهم العتية التي مازالت تحفظها كتبه.

وأمام هذا كله، يبتسم طه ولا يغضب، بل حدث ما هو أروع وأعجب، مما يدلل على سمو الرجل وسماحة نفسه، فحينما انتقل الرافعي لرحمة الله، كان طه وقتها عميدًا لكلية الآداب، وكانت إحدى بنات الرافعي طالبة بهذه الكلية، وعجزت عن دفع المصروفات، فعرف طه حسين ذلك، وطلب من اللجنة المختصة أن تمنح بنت الرافعي المجانية، وأنه على استعداد لدفع المصروفات من جيبه الخاص.! فعل هذا رغم شراسة أبيها وعدوانه عليه.!

ثم انظر لهذا الرافعي المقاتل، حينما مات ورحل عن الحياة، وقد خلف وراءه كثيرًا من العداءات والخصوم، لقد اهتزت بلدان الإسلام كلها لموته، لكن خصومه الكثر لم يتقدم منهم أحد بكلمة عزاء لأهله، إلا رجلا واحدًا هو الدكتور طه حسين أشد خصوم الرافعي نبلا وشهامة.

إن طه يحيي سيرة ديماس، لقد كان الروائي الفرنسي العظيم (ألكسندر ديماس الأب) مؤلف رواية الفرسان الثلاثة ورواية (كونت دي مونت كريستو) التي عرفتها السينما العربية بـ (أمير الانتقام).. كان يربح كثيراً وينفق أكثر وتحاصره الديون ويتردد عليه محضر المحكمة مراراً بإعلانات الحجز سداداً لديونه المتأخرة حتى كره المحضرين من أعماقه! ثم يجيئه صديق ذات يوم يسأله المعاونة في نفقات دفن رجل مات ولا عائل له، فيقدم له ديماس ١٥ فرنكاً، ثم يسأله عنه، فيعرف أنه كان محضراً بإحدى المحاكم.. فيخرج له من جيبه ١٥ فرنكاً أخرى ويقول له: إذن فادفن معه محضراً آخر.. إن بغضه للمحضرين وكرهه لفئتهم، لم يمنعه من العطف على أحدهم، والإحسان إلى ميتهم.!

لقد كان ديماس كريماً وكان من ذلك النوع الذي لا يبالي بالمال في سبيل إسعاد الآخرين..

ففي بداية حياته جاهد طويلاً ليقدم أولى مسرحياته للمسرح الفرنسي، ثم كتب مسرحية عن ملكة السويد (كرستيانا) وقبلها المسرح أخيراً، وبدأت بروفاتها، وبدأ ديماس يستعد لجني ثمرة كفاحه، فإذا بمؤلف مسرحي عجوز ظل طوال حياته يحاول بلا طائل أن يقدم إحدى مسرحياته للمسرح، قد كتب مسرحية عن نفس الملكة، وقدمها لنفس المسرح، فماذا يفعل ديماس؟

لقد سحب مسرحيته بكرم شديد قائلا: فلنعط الزميل العجوز فرصة لأن يقول كلمته الأخيرة على المسرح، قبل أن يودع الحياة!

ولم يحزن ديماس ، ولم يقلل ذلك التنازل من فرصته ككاتب مسرحي فقد قدم له المسرح بعدها عشرات المسرحيات الناجحة ، ممن يفعل مثلما فعل هذا الأديب المعجز الآن، وكان رغم إنتاجه الغزير، كان لا يخلو بيته أبداً من ضيوف على الغداء أو العشاء، ومائدة طعامه يجلس

إليها دائما ١٢ أو ١٥ ضيفاً ، وهو يتقن الطهي، ويتفنن فيه، ويدعو أصدقاءه في أيام الإجازات للإقامة عنده، ويرسل إليهم خادمه في الصباح برسالة منه: سيدي يسألكم ماذا تريدون من أنواع الطعام في الغداء اليوم، حتى لا تظنوا أنه لا يجيد سوى طهي الأنواع التي يقدمها لكم؟!

مثقفون بلا احترام

أتعس صورة حينما ترى الكاتب أو المثقف إنسانًا سخيفا سليطًا بائخا منعدم الذوق والاحترام.! وعهدنا بهذه الثقافة أنها تجعل من أصحابها وكأنهم أنبياء في سموهم وأخلاقهم، أو على الأقل أناس مهذبون مترفعون راقون محترمون.

ولعل صفة الاحترام بالتحديد وجدتها أكثر ما وجدتها في والدي رحمه الله، وكنت أدرك أبعاد هذه الكلمة، حينما كنت أراه يصف أحد الناس بقوله: دا راجل محترم.. وهو نفسه رحمه الله كان تجسيدًا حيا لهذه الكلمة، فلم أراه يوما متدنيا أو صغيرا أو مسفًا وانما كان عهدي به عاليا متساميًا كبير النفس راقي الفهم والفكر والتقدير، حتى ان بعضهم كان يناديني بقوله: يا بن الرجل المحترم.

في مكتبة الشروق أرسلتني الصحيفة التي كنت أعمل بها، لتغطية محاضرة للمفكر الكبير الدكتور محمد عمارة ومعه الدكتور سيف عبد الفتاح قبل أن يصبح مشهورًا معروفًا، وكان يدير الندوة إبراهيم المعلم، ولمحت من بين الجلوس رجلا يستفزه ببعض الكلمات والحركات، وكان المعلم تبدو عليه ملامح الضيق والحرج والغضب محمر الوجه يخشى أن تفسد المحاضرة ويسيء لضيفيه الكريمين، كنت أتابع الرجل ببصري وأتعجب من هذه التجرد من الذوق والاحترام، لكن تعجبي تزايد وتصاعد حينما عرفت فيما بعد أنه الكاتب الناصري أحمد الجمال، وأخذت أسائل نفسي: كيف يكون كاتبًا سخيفا بهذا الشكل؟ وباردًا متسلطًا بهذه الصورة؟!

ما زلت أؤكد أن الاحترام والأدب صفة أصيلة للمثقفين الأصلاء، وأن الكاتب السافل أو السخيف، ما هو إلا دعي منبوذ يسيء للثقافة والمثقفين، ويهدر قيمتهم ويشوه صورتهم.

ومنذ أيام قرأت عن موقف بين رجلين بارزين من المثقفين المعروفين، وهما الأستاذ عبد الحميد قطامش والكاتب الأديب زكريا الحجاوي، واندهشت حينما رأيت الرجلين وقد تجرد كل منهما من صفة الاحترام التي كان يلوح بها دومًا والدي ويذكرها على لسانه، ورغم أنهما صديقين، إلا أن هذه الصداقة، لا يجب أبدًا أن تتجرد من عنصر الاحترام والادب وإلا حدث مالا يحمد عقباه.!

فيوما من الأيام جلس زكريا الحجاوي في جمع من الأصدقاء والشباب الأدباء والفنانين في قهوة محمد عبد الله، وأقبل عليه صديقه عبد الحميد، وألقى نظرة على الجالسين فهب زكريا في احترام مبالغ فيه، وهي عادته عندما يكون في جلسة مع بعض معارفه الجدد، ورحب زكريا بعبد الحميد بكلمات تحمل كل الاحترام والتقديس، ووقف قطامش بعيدًا عن زكريا وهو في غاية الجد وقال له: (لسه قاعد بتنصب يا زكريا يا حقير بني أمية، يابن الـ...) ثم بصق على زكريا وانصرف، كان موقفًا حرجًا لزكريا لم يعرف ماذا يفعل أو كيف يتصرف؟ ولم يجد تبريرا لهذا الموقف، إلا أنه موقف أظهره بشكل معيب وألصق به تهزيئًا لا نظير له.

ومرت الشهور ثم سنحت فرصة لزكريا الحجاوي أن ينتقم من صديقه بنفس الصورة السفيهة المتجردة من كل احترام، حينما صعد إلى الباص عند محطة الباشا في منيل الروضة ولمح زكريا بين الركاب الشيخ قطامش يقف مع مجموعة من المحامين الشرعيين، فاقتراب زكريا من أحدهم وسأله هوه الأستاذ اللي واقف ده الأستاذ عبد الحميد قطامش المحامي الشرعي؟ فقال له: نعم فصرخ زكريا صرخة شديدة وقال بأعلى صوته يا لص يا كذاب يا منافق يا قطامش، تذهب إليك زوجتي بتوكل خاص لترفع لها قضية طلاق مني فتغازلها غزلا معيبًا يا منافق يا شيطان؟!

وبهت المشايخ جميعًا، فقد كانت هذه التهمة هي أم الكبائر، في مهنة أساسا تقوم على احترام أعراض الناس وأسرارهم، ولم يكن للقصة أصل في حقيقتها، ولكنها من اختلاق وافتراء زكريا لينتقم من صديقه على تسفيهه له أمام أصدقائه في قهوة محمد عبد الله.!

ما أروع الادب وما أجمل الاحترام.

اقرأ ما شئت أن تقرأ

اشتري بمالك ما شئت من الكتب

تحدث هنا وهناك بما قرأت وما عرفت وما أحطت.

ليعرف الجميع بأنك كهف الكتب، ومنبع الثقافة، وموئل المعرفة، وخزينة الأسفار، فإذا ما حار أحدهم يوما ماذا يقرأ؟ فإنه لا يسأل غيرك.!

وإذا ما أضناه البحث عن كتاب لا يجده إلا عندك، تفعل كل هذا حتى صرت معلم الثقافة وعراب القراء، وشارة المثقفين.

ولكن وأمام كل هذه الهالة، هل سألت نفسك يوما ما أثر هذه الكتب فيك؟

وهل غيرت القراءة من ذاتك شيئا؟

ما أثرها في أخلاقك وطباعك وصفاتك، هل غيرت منك شيئا؟ هل هدتك إلى الفضيلة؟

هل علمتك كارم الاخلاق؟ هل ارتقت بروحك وذوقك ومعاملاتك مع الناس؟

إن القراءة إذا لم تفعل شيئا من هذا فال قيمة لها ولا مقام ولا وزن.!

أتعجب لأديب يكتب الروايات الأدبية بأشكالها الراقية التي تمس شغاف النفس والروح، حتى أن الشباب يعدونه بطل الأدباء وقائدهم وإمامهم، ينظرون له بإكبار ويعدونه قدوة يخطون خطاها.

كل هذه الظنون تعبث بعقل الناظر وخياله، وتفرض عليه ما تريده من وهم.

حتى إذا ما كلمت هذا الأديب أو تحاورت معه، وجدت عجبا، حيث تجده سليط اللسان، قذر العبارة، نجس الفكرة، ينطق بأبشع الكلمات، ويهذي بأسخف النكات التي لا فضيلة فيها ولا احترام ولا شرف، حتى يتركك في حيرة من أمرك، حيث تتساءل: كيف لهذا الأديب الذي قرأ كثيرا من الكتب، والذي يفترض له أن يكون ملائكي الروح أن يكون مصطبغًا بهذا القذارة متلونا بهذا العفن؟!

لتكتشف الحقيقة الكبرى أن الكتب ليست بالمعجزة التي ترتقي بأخلاق الناس، فهي وسيلة للراغبين، ومددا يؤهل طلاب القيم والأخلاق.

ومن يومها تيقنت أن القراءة التي لا تهدي صاحبها للأخلاق، ولا تهذب الروح، باطلة لا قيمة لها.!

بل أدركت أن الكتب مهما جمعت من حشودها وكدست من صفوفها، فإنها إذا لم تعلم صاحبها معنى الرقي والسمو، فما أرخصها وأبخسها وأهزلها.!!

والذين يقرؤون للمتعة فقط، لا تعدو القراءة لديهم أن تكون شهوة كأي شهوة، لكنها أبدا لا تكون مناط تربية وتعليم وتهذيب.!

أما الذين يقرؤون لتهذيب النفس وتربية الوجدان وإصلاح الطباع واستقامة الذوق، فهؤلاء هم من يعرفون معنى القراءة الحقيقي، ويدركون مغزاها الذي أقيمت له.

وإفادة النفس مما تقرأ، وإهمال الكتب حينما لا تفيد النفس في شيء، هو المعنى الذي أدركه أديبنا الكبير إبراهيم عبد القادر المازني حينما في حصاد الهشيم وهو يريد أن يشتري نسخة من ديوان المتنبي: "وكنت كلما نزعتني نفسي أن أشتريه أقول: ما ضرورة ذلك، أليس خيرا أن يحيا المتنبي في نفسي، من أن يعيش على رف في المكتبة؟ أترى الغاية، من الأدب هي اقتناء الكتب؟ لا وليست هي أن يكون المرء كثير الحفظ، أو مدمن القراءة لما لا ينتفع به، وحسب المرء من الكتب أثرها في نفسه، وفعلها في تهذيبها ورفع مستواها وفكرها، ولخير له أن يقرأ وينسى لفظ ما قرأ، بل معناه أيضا، ما دامت الفائدة قد حصلت، والنفس إذا كانت خصبة مستعدة، تنمي البذرة التي غرست فيها، وليس يمنع الماء أن البذرة تحت التراب مدفونة"

الإحراج محنة أم منحة؟

للإحراج أثر بالغ في النفس، يُصيبها بالضيق والحزن والكآبة، خاصة إذا ما أحرجك أحدهم وذكرك بجهلك في العلم، أو فيما خفي عليك من أمور المعرفة.

والناس حيال هذا الإحراج همم وعزائم، فمنهم من يستسلم للضيق والحزن، فييأس ويحبط ويسقط، ومنهم من ينشط ويتحمس ليعرف ما جهله، ويدرك ما فاته، ويعرف ما خفي عليه، ويكون سببا في تحديه وتفوقه.

[1] – راجع حصاد الهشيم – ابراهيم عبد القادر المازني

فتتحول المحنة إلى منحة، والضيق إلى فرح، والحزن إلى سرور وغبطة وسعادة.

واسمح لي في هذا المقام أن أذكر لك قامة علمية كبيرة اتفق أهل العلم على أنه أكثر علماء الإسلام تصنيفًا بعد الإمام ابن جرير الطبري، وهو الإمام ابن حزم الأندلسي، الذي خلف لنا ثروة علمية ضخمة وشاملة في شتى أنواع الفنون، لا يعلم مثلها إلا من قلة نادرة من فطاحل أهل العلم.

وقد شهد فيه العلماء شهادات كبيرة عظيمة، تعبيرًا عما كان ينعم به من عقلية باهرة، وحافظة ذهبية، ودراي محيطة.

قال عنه الإمام أبو القاسم صاعد بن محمد: كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة، مع توسعه في علم اللسان، ووفور حظه من البلاغة والشعر، والمعرفة بالسير والأخبار.

وعنه قال الإمام الغزالي: وجدت في أسماء الله تعالى كتابًا ألفه أبو محمد بن حزم الأندلسي يدل على عظم حفظه، وسيلان ذهنه.

وقال أبو عبد الله الحميدي: كان ابن حزم حافظًا للحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننًا في علوم جمة، عاملا بعلمه، ما رأينا فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ، وكرم النفس والتدين، وكان له في الأدب والشعر نَفَسٌ واسع، وباع طويل.

وقال اليسع الغافقي: أما محفوظة فبحر عجاج، وماء ثجَّاج، يخرج من بحره مرجان الحكم، وينبت بثجاجه ألفاف النعم في رياض الهمم، لقد حفظ علوم المسلمين، وأربى على كل أهل دين.

وشهد لعلمه العز بن عبد السلام سلطان العلماء فقال: ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل (المحلى) لابن حزم، وكتاب (المغني) لابن قدامة.

ولعلنا نسوق هذه السيرة ونذكر هذه القامة، لا بعدًا عن مضمون الحديث، ولكن لصلتها الوثيقة به، فإنك تندهش حينما تعلم أن هذا الفقيه الكبير الذي ترك بصمات في دنيا الإسلام، لم يدفعه إلى هذا النبوغ الباهر، إلا الإحراج والتنويه بجهله وقلة معرفته، وهو ما أشعل في

نفسه الحماس، وألهب في قريحته العزيمة، ودفعه دفعًا للتعلم والتفقه في الدين، والتبحر في عالم المعرفة، حتى صار أمة وحدة يشار إليه بالبنان، بل صار صاحب مذهب كبير من المذاهب الفقهية.

جاء في سير أعلام النبلاء: أَن سَببَ تَعَلُّمه الفِقْه أَنَّهُ شَهِدَ جِنَازَة، فَدَخَلَ المَسْجَدَ، فَجَلَسَ، وَلَمْ يَركع، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: قُمْ فَصلِّ تحيَّة المَسْجَد.

وَكَانَ قَدْ بلغَ سِتّاً وَعِشْرِيْنَ سَنَةً.

قَالَ: فَقُمْتُ وَركعتُ، فَلَمَّا رَجعنَا مِنَ الصَّلاَةِ عَلَى الجِنَازَة، دَخَلْتُ المَسْجد، فَبَادرتُ بِالرُّكُوْع، فَقِيْلَ لِي: اجلس اجلس، لَيْسَ ذَا وَقتَ صَلاَة - وَكَانَ بَعْد العَصْر - قَالَ: فَانْصَرَفت وَقَدْ حَزِنْتُ، وَقُلْتُ لِلأُسْتَاذ الَّذِي رَبَّانِي: دُلنِي عَلَى دَار الفَقِيْه أَبِي عَبْدِ الله بنِ دحُّوْنَ.

قَالَ: فَقصدتُه، وَأَعْلَمتُه بِمَا جرَى، فَدلَّنِي عَلَى (مُوَطَّأَ مَالِكٍ)، فَبدَأْتُ بِهِ عَلَيْهِ، وَتتَابعت قِرَاءتِي عَلَيْهِ وَعَلَى غَيْرِهِ نَحْواً مِنْ ثَلاَثَةَ أَعْوَام، وَبدَأْتُ بِالمُنَاظرَة.اهـ

فالأول قال له: صل تحية المسجد والثاني قال له: لا تصل، فلم يرض ابن حزم لنفسه أن يبقى جاهلا يأمره هذا بشيء ويأمره اخر بخلافه فاتجه فورًا لطلب العلم حتى نبغ فيه فهذا من علو الهمة في العلم.

وشبيه به ما حدث للشيخ الأديب علي الطنطاوي حينما كان طالبًا في المدرسة ودخل المعلم وأملى عليه بيتين للمعري وقال له: اقرأ وفسر وأعرب، فانطلق الطنطاوي يخطب في موضوع البيتين خطبة حماسية مجلجلة، ولكن الاستاذ ينظر إليه ويبتسم ابتسامة أحس معها الطنطاوي كأنها كوب ماء أطفأ نار حماسته، بل كأنها سكين غُرس في قلبه، وقال له المعلم بهدوء ساخر، ولهجة حادة: فسر أولا معاني الكلمات الغريبة، فوقف ولم يجب، ثم سأله عن دقائق الإعراب فلم يجب مرة أخرى.!

فقال له المعلم: أتبني الدار قبل نحت الحجارة؟

وتخيل الطنطاوي نفسه فعلا، يبني دورًا في الهواء لا اساس لها ولا قواعد، وانطلق بعد هذا الإحراج، ليقرأ في النحو والصرف، ويغرف من معين اللغة غرفًا، حتى تضلع في معارفها.

لقد دفعه الإحراج للتعلم والمعرفة، ولم يقف به عند محطة الحزن والضيق والنقد الذي يفسد التطلع لمستقبل طموح.

وكان الإمام الكسائي، رحمه الله راعيًا للغنم حتى بلغتْ سِنُّهُ الأربعين..

وذات يومٍ، وهو يسير بغنمه، سمع امرأة تحثّ ابنها على الذهاب إلى الحَلَقة لحفظ القرآن، والولدُ يأبَى!

فقالت المرأة:

- يا بُنَي اذهب إلى الحلقة لتتعلم؛ حتى إذا كبرت، لم تكن مثل هذا الراعي!

فقال الكسائي:

- أنا يُضرب بي المثل في الجهل؟!

فانطلق من فَورِه فباعَ غنماته، وتحوّل إلى طلب العلم

فأصبح إمامًا في اللغة، وإمامًا في القراءات، ويُضرب به المثل في العلم، وعلوّ الهمة."

الانتصار على الظلام

لا تحسبن أنك بالسجن أعاذنا الله وإياك قد انتهي حلمك وأملك وغايتك في الحياة، وأنك صرت لا قيمة لك ولا ميزان ولا مستقبل ولا فائدة ولا طموح، فهناك قوم تمكن الأمل من نفوسهم وأضاء جوانبها، حتى ولو عاشوا في القبور المظلمة.

وكم أتعجب حينما أقرأ في سيرة ابن تيمية رحمه الله حينما دخل السجن أربع مرات في ست سنوات، فلم ييأس ولم ينتهي ولم يبحث له عن ركن في الزنزانة كي يبكي ويتحسر ويندب حظه وبؤسه، لقد استثمر رحمه الله وقته وسجنه في التأليف وكتابة الرسائل والردود على المخالفين، وأطول الفترات هي محبسه للمرة السابعة، مدتها عامان وثلاثة أشهر ونصف تقريبًا، ومنها أُخرجت جنازته من سجن القلعة إلى مثواه الأخير، وقد فتح الله عليه العلم والدعاء، ولذَّة المناجاة والعبادة بالرغم من حرمانه من قراءة الكتب، ووسائل الكتابة، فكان زاده في الخلوة الدعاء، وقوته فيها التضرع والبكاء، وغذاؤه الذكر والالتجاء.

[1] - الجواهر والدرر لابن حجر العسقلاني

وكان مما صنعه رحمه الله، أنه دخل السجن، وقام بالدعوة إلى الله تعالى حينما وجد المحابيس مشتغلون بأنواع من اللعب يلتهون بها عما هم فيه كالشطرنج والنرد ونحو ذلك من تضييع الصلوات، فأنكر الشيخ عليهم ذلك أشد الانكار، وأمرهم بملازمة الصلاة والتوجه إلى الله تعالى بالأعمال الصالحة والتسبيح والدعاء والاستغفار والدعاء، وعلمهم السنة ورغبهم في عمل الخير، حتى صار السجن بما فيه من الاشتغال بالعلم خير من الزوايا والربط والخوانق والمدارس، وصار المحابيس يختارون الإقامة عنده ويترددون عليه حتى امتلأ بهم السجن.

ما أروع الإمام بن تيمية رحمه الله إنه يجدد في سجنه سيرة يوسف عليه السلام، حينما قام بالدعوة إلى الله تعالى بين المسجونين بقوله في سورة يوسف: " يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠). [١]

في فترة الستينات حينما قام الطاغية عبد الناصر باعتقال شباب وجماعات التيار الديني وزج بهم في السجون، كان من ثمرة هذا الظلم العظيم، أن تغيرت أخلاق المسجونين الجنائيين، وتحسنت علاقاتهم بالله وصاروا يصلون ويلتزمون الأدب وعرفت نفوسهم معنى الاستقامة وتعلقت قلوبهم بحب الصلاح.

يقول الأستاذ محمد خفاجي في كتابه الرائع حينما غابت الشمس:

" إن المسجونين أنفسهم قد بدأوا يتشبهون بنا في أسلوب حياتهم، وأفضي الكثير منهم بمشاكله إلينا يلتمس عندنا الحل الشافي أو الرأي السديد المتفق مع الشرع، ويعتذر إلينا بدوره بالوسط الذي يساعده علي حياة الطهارة.. وأليس أن هذا المشتهر بالخطف يعاملنا نحن بكل أمانة وشرف.. لقد بدأنا نستشعر المسؤولية عن هذه النفوس جميعًا.. فجميعهم في قبضة الخوف وضياع الثقة يعملون، وفي أمواج الحياة تتخبط مراكبهم الضائعة بلا أشرعة في بحر

[١] - سورة يوسف: ٣٩-٤٠

لجي بلا شطآن.. وأصبح وجودنا بينهم هو شاطئ الأمان الذي ألقي كل منهم عليه همومه، وألتقط آماله، وأفضي بذات نفسه، واستعد أن يفعل من أجلنا المستحيل"

وأعرف صحفيًا كبيرًا لم يكن من الملتزمين ولا يهتم بأمر الدعوة أو التظاهر والاعتراض، ولكنه اعتقل بالخطأ وشاءت الأقدار أن يزامل شباب التيار الديني، فأثروا في نفسه تأثيرًا عظيما، وخرج بعد سجنه ليكون واحدًا منهم يحمل همهم ودعوتهم وفكرهم.

وحينما اعتقل الشيخ ناصر الدين الالباني، أخذ يدعو داخل السجن بما كان يدعو به خارجه، فحث الناس على الالتزام بالكتاب والسنة وترك الابتداع في الدين، والانقياد لله ورسوله وترك التقليد، فاستجاب له خلق كثير من المسجونين، وحث الناس على صلاة الجماعة والجمعة في السجن والتي لم تقم قبل.

فهل تجعل الظلام يقهرك ويكسر إرادتك أم تجعله طريقا يجلب لك نور القلب وفسحة الأمل؟!

أرجوك دع المستقبل في حاله

لم أكن من الجيدين المتفوقين في مراحلي التعليمية حتى ذهبت إلى الجامعة، فتغيرت كثير من مقادير الفهم والتركيز في قريحتي، لكني ومن معي طوال هذه الفترة الطويلة من مراحل التعليم، كنا نقابل ونصادف معلمين محطمِين، لم يكونوا ليتركونا أبدًا دون أن يصيبونا بتنبؤاتهم الخائبة، التي توحي لك بأنهم يقرؤون صفحة الزمان وما كتب فيها عن مستقبلك ومصيرك، فكان كثيرون منهم يتوقعون لك الفشل والضياع والسقوط، يفعلون ذلك، وهم يستلذون وينتشون بتكراره، وكم أتمنى اليوم لو ألقى أحدهم لأحرجه، وأذكره بأن فلسفته خابت، وتنبؤاته هوت، وحكمه قد أخطأ، أحب اليوم أن ألقى أحدهم وأهديه بعض كتبي في الفكر والأدب وتطوير الذات، حتى يتعلم أن المستقبل ليس بيديه، وأنه ليس بنبي ولا عالما بالغيب، بل لعله يتعلم الدرس الأكبر، أن الزمن لا يسير على حاله، وأن التغيير عارض وارد في حياتنا، وأن مهمتنا فقط.. التشجيع والتحفيز إلى النهاية، مهما كان الحاضر مظلمًا ومهما كان قاتما كئيبا.

ليس من حقك أبدا أن تحكم بالمستقبل المظلم لمن تعثر فهمه أو تباطأ تركيزه، أو تكاسلت حركات عقله عن إدراك ما تريد، فربما كان العيب ابتداء منك أنت، فلعلك تقدم أطروحتك بطريقة غبية، أو أسلوب فج لا تستسيغه العقول، كن بناءً مهما رأيت من كتل الظلام وعقابيل النهوض، ولتؤمن قبل كل شيء أن دوام الحال من المحال، وأن لا شيء يستقر على حاله، وأن التغيير والتبديل مؤكد وطارئ وموجود في الحياة، ويمس حال البشر بقوة وتأكيد. فلعل من تتهمه اليوم بسوء الفهم، وغباء العقل، وتبلد الفهم، أن يكون منه عبقري في المستقبل، تتعجب من قدرة عقلة، ونباهة فهمه وروعة إبداعه، وصولة فكره. رجاء، أنت لا تملك الغيب، فلا تحكم على المستقبل، ولو آمنت بهذه الحقيقة، فإنك بنظراتك السوداوية التي تحبسها في جوفك، ستقدم خيرًا كثيرا حين لا تجعلها عقبة في طريق متعثر ينتظر اللحظة المناسبة، والظرف المناسب، والوقت المناسب لنهوضه وانطلاقته وتفتح بصيرته. كتب جلال أمين في مذكراته يومًا عن زميل له في الدراسة الابتدائية، كانت هوايته أثناء شرح المعلم للدرس أن يلعب بالطائرات الورقية، وكان المدرسون يصممون أن يعرفوا ما الذي يشغله، وكان هو حينما يقترب منه أحدهم، يسارع ليخفي شيئًا في الدرج أو تحت المقعد، فإذا استقصوا عن الأمر وجدوا طائرة صغيرة، قام هذا التلميذ بصنعها من الورق، وهو مشغول عن الدرس إما بتلوينها أو بتركيب جناح لها أو مروحة، وكان المدرس القاسي يطرده من الفصل، والمدرس الطيب يحذره من أن فعله هذا سيؤدي به إلى مستقبل مظلم للغاية.! ومرت السنوات كبر التلاميذ وذهب كل منهم في طريق مختلف لا يعرف عن صاحبه شيئا حتى تخرجوا من الجامعة.

يقول كاتبنا: وذات مرة وأنا أركب الطائرة للسفر إلى لندن، وعند ربطي لحزام المقعد، سمعت صوتًا في الميكروفون يرحب بالمسافرين ويقول لهم: الكابتن تيمور يحييكم.! فقلت لنفسي على الفور: إني مستعد للرهان بأي شيء على أن هذا الكابتن تيمور هو صديقي القديم، وكيف يمكن أن يكون شخصا غيره؟ وطلبت من المضيفين مقابلة الكابتن، فأدخلوني كابينة القيادة ووجدته هو بعينه يقابلني بنفس الابتسامة التي توحي بأنه لم يتأثر برؤية زميله في الدراسة،

لكني اطمأننت وتأكدت على الأقل، أن نبوءة المدرس القديم لهذا التلميذ بمستقبل مظلم غير صحيحة ولم تتحقق.!

أرجوك لا تحكم على المستقبل فأنت لا تملك الغيب.

شبح الفقر يهدد العظماء

صورة مُحزنة تدل على عِوج الأيام، وسوء الناس، ونكد الحياة، وضنك الدنيا، حينما ترى عالمًا أو أديبًا له قيمته العالية، ووزنه الكبير، ومقامه الفريد، غارقًا في الفقر، راتعًا في الضيق والعدم، لا يجد قوت يومه، ولا يجد المال الذي يحييه حياة هنية راغدة، في الوقت الذي تَجد فيه جهلة مرتزقة، ولصوص وخونة، يملكون الأموال الطائلة، والعقارات الشاهقة، والأطيان الممتدة، والشركات والمشروعات المتعددة.

والأمة التي يُهان فيها العلم والعلماء، وتُقزَم فيها هذه النماذج، إنما هي أمة جاهلة، لا تستحق معنى البقاء، ولا تستحق أن تنتمي لمعنى الشرف الإنساني والضمير البشري، والبلاد التي يفتقر فيها عالم الدين لهذه الدرجة المجحفة من الفقر المعتق، إنما هي بلاد ظالمة جاهلة سيلعن التاريخ أيامها حينما يتذكر صورها المشينة.!

وكم كان الشعور بالحزن عظيمًا وأنا أقرأ الأيام لطه حسين، ووقفت فيها على وصفه لحالة شيخه الأديب المرصفي، وكيف كان على علو قامته، وسعة علمه، وبلوغ أدبه، يعيش في بيت فقير متهدم؟ فيقول عنه: رأى الطلاب في شيخهم المثل الأعلى للصبر على المكروه والرضا بالقليل، والتعفف عما لا يليق بالعلماء، والترفع عما كان ينغمس فيه كثير من شيوخ الازهر من ألوان السعاية والنميمة والكيد والتقرب إلى الرؤساء وأصحاب السلطان.

كان التلاميذ يرون من شيخهم ذلك حينما يزورونه في بيته، ذلك المنزل المتهدم الخرب القديم في حارة قذرة من حارات باب البحر يقال لها: (حارة الركراكي) كان يسكن فيها الشيخ، في بيت قذر متهدم تدخل فيه من بابه، فإذا أنت في ممر ضيق رطب تنبعث فيه روائح كريهة، قد خلا من كل شيء إلا هذه الدكة الخشبية الضيقة الطويلة التي أسندت

إلى حائط يتساقط عليها التراب، وكان الشيخ يدعو طلابه إلى حجرته، فيصعدون إليها في سلم متهدم ويسلكون إليه دهليزا خاليا من كل شيء" كان هذا من بعض وصف طه حسين لشيخه المرصفي، ومن العجيب أن هذا الرجل بهذه الحالة من الفقر الكبير وضيق ذات اليد ما كان يظهر حسبما أشار طه ولا تشعر فيه إذا وقف أمامك، إلا أنه رجل قد يسر عليه في الرزق، فهو يعيش عيشة في أمن وهناءة وهدوء.

ولكن جميع الطلاب يعلمون أنه من أشد الناس فقرا وأضيقهم يدا، وأنه كان ينفق الأسبوع أو الأسابيع، لا يطعم إلا خبز الجراية يغمسه في شيء من الملح، وكان على ذلك يعلم ابنه تعليما ممتازًا، ويرعى غيره من أبنائه الذين كانوا يطلبون العلم في الأزهر رعاية حسنة، ويدلل ابنته تدليلا مؤثرًا، يصنع كل هذا براتبه الضئيل."

وقد قرأت مرة أن العقاد حاصرته الديون وكبته الفقر، حتى أنه هم بالانتحار لولا أن دق جرس الباب في اللحظة الحاسمة، فيفتح ليرى ناشرا يريد طباعة كتابه أبو الشهداء بمبلغ مالي كبير.

وفي سيرة الأستاذ الكبير والمريد الأعظم والإمام الأرفع محمد رشيد رضا، رأينا مثل هذه المأساة الكبيرة، فرجل مثله له من أثر الإصلاح والدعوة والإرشاد ماله في الأمة، ورغم هذا كان يعاني من الفقر الشديد وضيق ذات اليد، لقد كان مدينا بمبالغ كبيرة، ولم يكن له مورد مالي سوى ما يأتيه من إيراد بعض مؤلفاته، ولكنه يصل إلى حالة عجز كبير عن سداد ديونه، حتى أنه يكتب ويشتكي لصديقه شكيب أرسلان ويقول له: "إن ما يطلب منا اليوم لا نملك عشره ولا نصف عشره"

ثم يضيق به الحال أكثر وأكثر، حتى يكتب له مرة أخرى ويخبره أنه عاجز عن إرسال صندوق من الكتب أمر شكيب بإرساله إلى الجزائر، مع أن الأجر قيمته (١٢٥) قرشًا، ثم نراه يكتب مرة أخرى لصديقه ما يزيدنا هما ولوعة لهذه الفاقة الشديدة التي ألمت به، حتى وصلت هذه المحنة أن تهدد إصدار المنار ذاتها، التي كانت مبعثا من مباعث الهداية ومشعلا من مشاعل الإصلاح في العالم الإسلامي كله، فيقول لصديقه: " لقد صرت أكره وأستثقل أن أزعجك

بأخبار عسرتي في كل كتاب، وكنت أنتظر في هذه الأيام يُسرًا يُغنيني عن ذكرها، فلم يزدد إلا شدة حتى أن عُمال المطبعة تركوا العمل في هذين الأسبوعين وصرت أفكر في إبطال إصدار المنار ، وإن ذكر هذه الكلمة في هذه الفكرة أثقل على نفسي من الجبل إذا انقض علي"

وهكذا وصل الفقر بهذا العلم الكبير والامام الرائد، الذي كان له أثره العظيم في الإصلاح الإسلامي، وإيقاظ الوعي والفكر وتعليم المسلمين وتنوير عقولهم.. هكذا أوشك الفقر أن يقضي على مسيرته، دون أن تمتد إليه يد لتعينه وتشد من أزره ليواصل كفاحه الإصلاحي الفريد.. وهذا حال أوطاننا وبلادنا وعلمائنا.

ولله در أَبِي العلاء المعري في قوله:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا.**

الإعجاز المشهود في فن الردود

الحق أنني واحد من الذين لا يملكون سرعة البديهة في الرد، فتلك السجية موهبة لها أفذاذها البارعون فيها، الذين يملكون عقولا مدهشة في التقاط الرد السريع والمناسب على كل شبهة أو تهمة تلقى عليهم أو تعريض ينالهم، في وقته بلا تأخر أو تفكير أو تأجيل.!

وكم يعجب المرء يعجب أشد العجب من هؤلاء الناس، وعقولهم الذرية التي تتفتق عن عبقرية لا نظير لها في فن الرد والاتيان بالجواب المناسب، في مكانه وحينه المناسب، أما أنا فخائب لا أملك هذه الموهبة، ولا أستطيع الاتيان بالرد المأمول إلا بعد تفكر وهدوء وشرب فنجان من القهوة، والخلوة مع قلمي وأوراقي، والبدء في كتابة رد لائق، لتكون سخونة الموقف قد ولت وانتهت، فلا يكون لردي أي قيمة أو نتيجة، وأظل صريع الندم بعدها أعض أناملي وأنا أقول: كان الأجدر بي أن أرد بكذا وأجيب بكذا وكذا.

وتعد القراءة في فن الردود والإقحام، أن من أكثر القراءات التي تبهر النفس، وتهيج منافذ الاعجاب، هي القراءة عن أصحاب هذه الألمعية والبديهة السريعة، الذين يدهشون خصومهم ونظراءهم بسرعة بديهتهم في الرد الملجم الصاعق.!

انظر معي بعض هذه النماذج:

أراد رجل يومًا احراج المتنبي فقال لـه: رأيتك من بعيد فـظننتك امرأة.! فقال المتنبي: وأنا رأيتك من بعيد فظننتك رجلا!

قال وزير بريطانيا السمين تشرشل لبرنارد شو النحيف: من يراك يا شو يظن بأن بريطانيا في ازمة غذاء! فقال: ومن يراك يعرف سبب الأزمة

أقبل جحا على قرية فرد عليه أحد أفرادها قائلاً: لم أعرفك يا جحا إلا من حمارك.! فقال جحا: الحمير تعرف بعضها!

رأى رجل امرأة فقال لها: كم انت جميلة، فقالت له: ليتك جميل لأبادلك نفس الكلام! فقال لها: لا بأس اكذبي كما كذبت.

كانت حزينة فقال لها: أنت ثاني أجمل فتاة رأيتها، قالت: ومن الأولى؟ فقال: أنت حين تبتسمين!

التقى الجاحظ بامرأة قبيحة في أحد حوانيت بغداد فقال: " وإذا الوحوش حُشرت " فنظرت إليه المرأة وقالت: " وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه "

كانت امرأة تسوق أربعة حمير وإذا بشابين سائرين بجانبها فقالا لها: صباح الخير يا أم الحمير فأجابتهما على الفور: صباح النور يا أولادي.

كان رجل مسن منحني الظهر يسير في الطريق، فقال له شاب بسخريه: بكم القوس يا عم؟ قال: إن أطال الله بعمرك سيأتيك بلا ثمن.

ذكر أن الحافظ ابن حجر لما كان قاضي القضاة مر يومًا بالسوق في موكب عظيم وهيئة جميلة، فهجم عليه يهودي يبيع الزيت الحار وأثوابه ملطخة بع متسخة، وهو في غاية الرثاثة والشناعة، فقبض على لجام بغلته وقال: يا شيخ الإسلام تزعم أن نبيكم قال: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأي سجن أنت فيه، وأي جنة أنا فيها، فقال ابن حجر: أنا لما أعد الله لي في الآخرة من النعيم كأني الآن في السجن، وأنت بالنسبة لما أعد لك في الآخرة من العذاب الأليم، كأنك في جنة فأسلم اليهودي.!

ورُوي عن سيدنا علي كرم الله وجهه أن يهوديا عيره فقال: أنتم ما فرغتم من دفن نبيكم حتى قلتم منا أمير ومنكم امير.. فرد سيدنا علي:

وأنتم ما جفت أقدامكم من ماء البحر حتى قلتم ابعث لنا آلهة كما لهم آلهة.!

شاهدت قديما حلقة من برنامج قلم رصاص الذي يقدمه المرحوم حمدي قنديل واستضاف فيها الكاتب العلماني سيد ياسين والمفكر الكبير دكتور محمد عمارة، على خلفي نجاح أكثر من ٨٠ عضوًا من الاخوان في مجلس الشعب، كان اللقاء مبهرا، لكن المعجز فيه كانت شخصية الدكتور محمد عمارة، وردوده الرهيبة التي يخيل إلي من فرط عبقريتها، أن سيد ياسين قال له قبل اللقاء: إنني سأتكلم في كذا وكذا فحضر جوابك.

ورحم الله أستاذنا وشيخنا العلامة الدكتور (محمود عمارة)، حينما سأله شاب عن المسيحيين الذين يموتون في المعركة دفاعا عن الوطن، هل هم في الجنة أم في النار؟ فما كان منه إلا أن رد بسرعة البرق قائلا: لو كان السائل مسلما فهو يعرف الجواب، ولو كان نصرانيا فليسأل القسيس.!

بعض الأصدقاء يعتبر فن الرد وسرعة الإفحام، رزق إلهي ومنحة ربانية، حتى لا يغرق في ظلمات الليل يأكل الهم والغيظ قلبه، فسرعة الرد تشفي نفسه وتنجيه من هذا الوبال، وبعضهم يعتبر الافتقار إليها هو المنحة الحقيقية، حتى لا تكون سرعة الرد منزلقا ينحدر به إلى رد لا تحسن عاقبته، أو يجلب عليه كثير من الخسار والندم، فيا ترى مع أي منهما أنت؟!

حدثتنا إحداهن بأنها كانت في عمرة مع زوجها ووالدته، وقال: ذات يوم سبقني زوجي إلى الحرم وتوليت أنا والدته التي كانت لا تستطيع المشي طويلا وكانت تجلس طوال العمرة فوق كرسي متحرك، شفاها الله وعافاها؛ وعند أحد المنحدرات التي تتميز بها شوارع المدينة كاد يد الكرسي تنزلق من بين يدي، ولكن الله تعالى سلَّم، فقولت لها فى نبرة كوميدية كما تعودت معها في الحديث:

- الحمد لله، انتِ لو كنتِ وقعتي يا حلوة كان ابنك طلقني.

فرد على أحد أفراد الفوج وهو لا يعرفني:

- أتخافين من زوجك ولا تخافين الله؟

فوجدتني أرد بتلقائية، ووالله لم أعلم من الذي أنطقني:

-نعم أخاف من زوجي ولا أخاف من الله؛ لأن الله يعلم نيتي أما زوجي فلا.

من أعظم نعم الله تعالى أنه لا يحاسبنا عن قولٍ أو عملٍ قبل أن ينظر إلى قلوبنا ونوايانا وصدق الرسول الكريم ﷺ إذ قال: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى) والحمد الله أن حسابنا ليس بيد مخلوق.

حينما تضيع المروءة!

في المقطع الذي بث على الانترنت للناشطة (شيماء الصباغ) في وسط القاهرة أثناء مشاركتها في تظاهرة سلمية، لم تكن تفعل شيئاً فيها إلا أنها كانت تنادي بالحرية وتحمل الزهور، وتعبر عن رأيها بالهتاف مرة، وبلافتة تحملها مرة أخرى، ثم قصدتها رصاصات الغدر فأردتها قتيلة. سارع إليها صديقها في محاولة منه لإنقاذها والهروب بها إلى مكان آمن يستطيع أن يسعفها فيه.. كان يهرول بها وهي تترنح على كتفه لا يدري أين يسير وإلى أين يتجه، وفي ظل هذا المشهد المأسوي المؤلم، كان الناس على الناحية الأخرى وفي نفس اللقطات يسيرون حولها بكل برود وفتور، ومنهم من كان يجلس على القهوة، يشاهد الموقف ولا يحرك ساكناً، ولا ينفعل لحجم المأساة، ولا يسارع إلى النجدة أو تقديم أي شكل من أشكال المساعدة للفتاة المجروحة وصديقها الحائر، كانوا ينظرون إليهما ببلادة منقطعة النظير، وفي غيبوبة عن كل معاني الرحمة والإنسانية.

وهذه الروح التي ظهرت في هذه المشاهد التي تصور مصرع (شيماء الصباغ) استرعت انتباه الكثيرين، ورصدوها ملفتين إلى انهيار المجتمع، حينما تغيب منه المروءة، ويظهر فيه هذا النوع من الناس الذين لا يبالون بأحد، ولا يهتمون بمصاب، ولا ينجدون مستغيث، ويرفعون شعار دع الملك للمالك ..هؤلاء الناس العاديون الذين أصيبوا بفقدان النخوة، واستشري فيهم داء اللامبالاة، ويردد أحدهم قوله: (وأنا مالي) ..هؤلاء تحديداً حينما يظهرون في

مجتمعاتهم ، فحدث ولا حرج عن ضياعها ونهايتها وانهيار ما فيها من مثل وقيم، ورحيل أكيد لحقوق الانسان وكرامته.!

ويااليتهم شخصا واحدا أو شخصين، لقلنا ساعتها لعلهما مخمورين أو تائهين أو أنهما من القتلة أنفسهم، ولكنهم كثير يضج بهم المكان يمينا ويساراً.

إنهم المواطنون العاديون الذين أعرضوا عن الفتاة المجروحة، لأنها ذكرتهم بضعفهم وخذلانهم ومروءتهم الضائعة، هؤلاء المواطنون الذين صار الواحد منهم على استعداد لأن يقتل ويكْفُر ويَفْجُر من أجل لقمة العيش التي صارت إلهه ومعبوده في هذه الحياة، وصار هو عابدا لها حتى ماتت فيه معالم الحرية والنخوة والنجدة والإباء، هؤلاء هم بلاء الأوطان ورزية الشعوب الذين ينمو في ظلهم معنى الظلم، وتتعافي في ظلهم روح التسلط والاستبداد والقهر.

وتحاول الكاتبة (ديانا مقلد) أن تعرض لمشهد مشابه، لتقف بنا على أسباب الضياع في المجتمعات التي تُعاني من تسلط الحكام الفجرة والأنظمة الجائرة، التي تسحق مجتمعاتها، وتجعل حياة مواطنيها في جحيم مستمر، بما تقدم عليه من سياسات ظالمة طاغية، وقرارات حمقاء عاتية فتقول : "مرت الذرى السبعين للمحارق التي نفذها النازيون، وانكب الدارسون والباحثون على دراسة واحدة من أكبر جرائم التاريخ المعاصرة، فوقفوا كثيراً أمام حكاية أولئك المواطنين العاديين، أسئلة كثيرة طرحتها جرائم النازية، كان أحدها إلى أي حد يُعد الألمان العاديون مسؤولين عن جرائم ارتكبت باسمهم، فهم لم يشاركوا في القتل الفعلي، لكنهم ساهموا بلا مبالاتهم وسلبيتهم..

حكايات هؤلاء العابرين والمواطنين العاديين تحمل في طياتها المعاني التي تساعدنا في فهم الأنظمة الشمولية، فاللامبالون، لم يسهموا مباشرة في أعمال السلطات الدامية، وهم ليسوا قتلة، لكن الطاعة التي يكشفها سلوكهم وانعدام السؤال أو التشكيك، يجعلنا نفهم كيف ينمو الاستبداد وكيف يتمكن من إغواء الجماهير.؟!

كان لأدولف هتلر حليف قوي غير مرئي ما كان لينجح من دونه، حليفه كان العالم الذي اختار أن يصمت، لقد بدأ هتلر جرائمه ببطء وصعد بحذر على مدى سنوات ليصل إلى ذروة الإبادة.

الباحث في اللاهوت (مارتن نايمولر) قال: حين طارد النازيون اليهود، لم أكن يهودياً، لذا لم تكن لي ردة فعل، وحين لاحقوا الكاثوليك لم أكن كاثوليكياً لذا لم أتحرك.. وحين استهدفوا العمال لم أكن عاملاً فلم أقف معهم، أما حين لاحقوا رجال الدين البرتستانت تحركت وتفاعلت ووقفت، لكن حينها كان الوقت قد تأخر، حينها لم يكن هناك أحد ليدافع عن أحد."

لقد تبرأ ديننا من هذه النفس الذليلة الخانعة التي تنحني لكل ظالم جبار، حتى ينفذ مراده في رقابهم، وحث أتباعه على النجدة والشجاعة والنبل والمروءة والصدع بالحق في وجه الظلمة والطغاة، ورفض الظلم بكل أشكاله وألوانه، والوقوف بقوة وصلابة أمام كل ظالم متجبر فقال: ﷺ

(إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)

وقال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله)

وقال بعض علمائنا: (الساكت عن الحق شيطان أخرس، والناطق بالباطل شيطان ناطق)

في حواري مع الأستاذ (ضو التريكي أبو النور) رئيس (المركز الإسلامي للثقافة والاندماج) بمدريد أخبرني: بأن الأسلوب والمعاملة من متطلبات الدعوة إلى الإسلام في المجتمعات الغربية ، ففي كثير من الأحيان لا نحتاج إلى محاضرات، ولكننا نحتاج إلى معاملة وخلق جيد نمارسه في المجتمع ليقبل على الإسلام بسببه، وقد حدث معي موقف بسيط جداً أذكره لك، فقد ركبت الحافلة يوماً ووجدت مكاناً خالياً فجلست فيه، وفي المحطة التالية صعدت امرأة ومعها طفل يبدو عليه الإعياء والتعب الشديد، فجلست أمه أما هو فجلس على الأرض لأنه لم يكن هناك مكاناً خالياً، وإشفاقا عليه قمت وتركت له مكاني، وبقيت واقفاً حتى نزل شخص من الخلف، فذهبت وجلست مكانه.

وتفاجأت برجل يجلس بجواري كان يتابع المشهد من بدايته، سألني وقال لي: ألم تكن حين قمت للصبي تريد النزول من الحافلة؟

فقلت له: لا.. فتعجب ثم سألني مرة أخرى هذا يعني أنك قمت لتترك مكانك للصبي؟

فقلت له: نعم ثم أعاد علي السؤال ثلاث أو أربع مرات، وهو يحسب أني لم أفعل ما فعلت رحمة بالصبي المريض، فهو مندهش أن يصدر مثل هذا الموقف الأخلاقي من مسلم، وهم بطبيعة الحال يعرفوننا من خلقتنا، لقد كان الرجل منبهراً وكأنه وقف على كشف إنساني عجيب، أو نظرية جديدة من نظريات الأخلاق والفضيلة..

وهذا التصور السلبي عن المسلمين ناتج عن خلفية سيئة تسبب فيها الإعلام الغربي وبعض تصرفات المقيمين الأول من الجالية المسلمة، وقد وجدت هذه الحادثة فرصة لتكون مدخلا إلى هذا الرجل في حديثي إليه عن الإسلام، فقلت له : لا تستغرب يا سيدي فديننا ونبينا ﷺ يأمرنا بهذا ويقول: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا.. فالأخلاق ثم الأخلاق، هي الطريق الأمثل للدعوة وتوضح حقيقة الإسلام أمام ما يواجهه من حملات التشويه..

وهذا الموقف الشهم الذي قدمه الأستاذ (التريكي) لا شك أنه غير من الصورة المستقرة في ذهن الراكب عن الإسلام والمسلمين، لقد شاهد الراكب المراقب موقفاً مفعماً بالنخوة والرجولة والإنسانية العالية، في زمن ومجتمع تشبع بالنفعية والمادية وإيثار الذات، فلم يكن من بين الركاب من شعر بمحنة الصبي غير صديقنا المسلم، ولقد كانت الدهشة الكبرى من مُشاهد ليس طرفاً في الموقف، ومثل هذه المواقف الإنسانية تسهم في تكوين انطباع قوي مشرق عن أخلاق الإسلام والمسلمين، يؤهل هذه المجتمعات الغربية للقبول به والترحيب بوجوده.

والحق أن المروءة في هذا الزمان، صارت شيئاً نادراً ولا تصدر إلا عن شخص صاحب رسالة، أو مؤمن بقيمة، أو لديه كما يقولون: أصل وتربية.

الرائعون في بلادي

ماذا يدور بخلدك الآن عمن يحتل هذه المكانة وينال هذا اللقب الجميل؟

هل هم السياسيون أم العسكريون أم الأثرياء أم العلماء أم الأدباء والمفكرين؟

ليس أحد من هؤلاء ولا أولئك، لكنني قبل أن أشرح لك من هم، يجب أن تعلم أنني لا أبالغ لو قلت لك: إنهم لا يقلون درجة وشأنًا عن أولئك الجنود المرابطون الذين يحمون الوطن ويزودون عن حياضه، ويقفون على ثغوره، ويدفعون دماءهم ثمنا لعزه وفداءًا لمجده، لا يقلون عنهم أبدًا في إيمانهم وحبهم للوطن، وعمق الانتماء له.!

كان الغرب وأعداء مصر من الحاقدين والمتربصين بها على مدار التاريخ، يراهنون على الفتنة الطائفية، بين المسلمين والاقباط، وأنها السلاح الذي يمكن من خلاله أن يشعلوا ربوعها بنيران الفتنة والتفرقة، فيسهل ضياعها والسيطرة عليها وتحقيق غرضهم فيها.

لكن ما حدث كان محبطًا للآمال، ومخيبًا للظنون، حينما وجد الأعداء وأبصروا هذا التلاحم الكبير بين الطرفين، حينما تمثلوا جسدا واحدا وروحًا واحدة، تتوثب لنزال عدوها وقت المحن وساعة العدوان على بيته ومأواه وموطنه.

تجلى هذا في كثير من الثورات والمظاهرات، التي كان الشيخ فيها بجوار القسيس، حتى قال الشاعر معلقًا على المشهد:

الشيخ والقسيس قسيسان ** وإن تشأ فقل هما شيخان

وإذا كان هناك قطاع من المغالين المتشددين بين صفوف الأقباط، الذين تشبعوا بروع العداء الصليبية، وارتوت قلوبهم من الغل والحقد على الدين الغالب في وطنهم، إذا كان هناك قطاع من هؤلاء المتشنجين القاصرين، فإن هناك عقلاء فاهمون ناصحون مدركون لمصلحة الوطن، مؤمنون بالوحدة الوطنية، موقنون بقيمة الإسلام وعظمته كدين حفظ حقوقهم ورعا مصالحهم وقدّر إنسانتهم، وهي المزايا الرائعة التي لا ينالونها تحت ظل حكومات وأوطان تدين بالنصرانية، وتوافقهم في المعتقد؟!

لقد تعرض شيخنا العلامة المفكر الدكتور/ محمد عمارة، في كثير من مؤلفاته، لكثير من قضايا الأقباط، والرد والدفاع عما يثيره بعضهم من شبهات ضد الاسلام، لكن الدكتور عمارة، ولمن يراجع كتبه وفكره، كان وهو في حمأة الدفاع والجدال عن الحقيقة، والتصدي للمتطرفين من

أراذل الاقباط، حريصًا بقوة على التنوية بعقلائهم والاستشهاد بهم، وهم يعززون من قيمة الوطن، ويشيدون بجمال الإسلام في رعايته لحقوقهم واحترامه لوجودهم، فانظر إليه وهو يقول في واحد من مصنفاته: " لقد تجاوز عقلاء النصارى من المصريين والعرب إطار التلاحم الوطني مع المسلمين، إلى حيث أدركوا ما في الاسلام الحضاري والثقافي من جامعة للتوحد الوطني والقومي والحضاري لأبناء الأمة جميعًا ومن مختلف الديانات"

لقد سجل هؤلاء العقلاء أقوالا تعبر عن هذا المفهوم، وما هي في حقيقتها إلا حكم غالية عالية، تدرس وتحفظ وتثبت للزمان روعة هذه النفوس ووعيها الكبير، وإيمانها بالوطن وإشادتها ووعيها بروح الإسلام.

ستظل هذه الأقوال أناشيد خالدة للأجيال من الفريقين، تعلمهم معاني الوطنية والحب والانتماء لهذه الامة، التي حتى لو اختلفوا عنها دينا، فإنهم زرعها الذي نبت في أرضها، ودمائها هي التي تجري في أجسادهم، فهم منها وهي منهم، لا ينفكون عنها ولا تنفك عنهم، مهما نفث المتآمرون أو نفخ المحرضون.

انظر لهذا الرائع مكرم عبيد باشا حينما قال:" نحن مسلمون وطنا ونصارى دينا" وكان يدعو ربه ويقول: " اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارًا، واللهم اجعلنا نحن نصارى لك وللوطن مسلمين"

بل انظر لميشيل غفلق النصراني الأرثوذكسي، الذي اشتد في هذا الإيمان، فقال كلاما يفوح روعة وجمالا: " لا يوجد عربي غير مسلم، فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولاتنا، وهو لغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون... وإن المسيحيين حينما تستيقظ قوميتهم سوف يعرفون بأن الاسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبوها ويحرصوا عليها حرصهم على أثمن شيء في عروبتهم"

ومن رجال الكهنوت الكاثوليكي، تحدث الأنبا يوحنا قلتة - نائب البطرك الكاثوليكي عن إسلامية الهوية الحضارية، فقال: "أوافق تمامًا أن أكون مصريًا مسيحيًا تحت حضارة إسلامية، أنا مسلم ثقافة مائة بالمائة، أنا عضو في الحضارة الإسلامية".

حتى الدكتور غالي شكري، والذي قال ما قال في لحظة صدق مع الحقيقة، كما وصفه شيخنا عمارة: «إن الحضارة الإسلامية هي الانتماء الأساسي لأقباط مصر، وعلى الشباب القبطي أن يدرك جيدا ان هذه الحضارة العربية الاسلامية، هي حضارته الاساسية، أنها الانتماء الاساسي لكافة المواطنين.. لقد ورثت كل ما سبقها من حضارات، وأصبحت هي الانتماء الأساسي، والذي بدونه يصبح المواطن في ضياع.. إننا ننتمي، كعرب من مصر، الى الاسلام الحضاري والثقافي، وبدون هذا الانتماء نصبح في ضياع مطلق.».

وأمام هذه النصوص الراقية الناضجة، ألست معي في أن هؤلاء الناس يماثلون تماما جنود الوطن من أبنائه الذين ينافحون عنه في ميدان القتال؟!

أرأيت كيف كانوا بهذه الأقوال العاقلة الناضجة، يحفظون على الوطن أمنه ويدعمون سلامته، وينأون به عن الضعف والضياع والتفريط والانكسار تحت سنابك الأعداء، فما أحوجنا لتدريس مثل هذه الأقوال وإعادة نطقها وترديدها والتأسي بها، حتى نُعلِّم الأجيال قيمة الوطن ومعاني الوطنية، وأن حضارتنا التي يفرط فيها بعض منا، يعتز بها وينتصر لها من ليسوا على دينها.!

الأزهر ينتصر على أكسفورد

مهما شرق الإنسان أو غرب، ومهما تقلب في غياهب الحياة، تجده دومًا يحن لموطنه الأصلي ويرجع لطبيعته الأساس، ويعود بعد رحلة طويلة إلى نشأته الأولى، التي تؤثر فيه بحكم التربية والتعليم والنشأة والتكوين.

ومن هنا كان دائمًا ومن طرق التحريات الأمنية أن ترصد نشأة الإنسان وبداية تكوينه، لأنها تلقي بظلالها على حالة صاحبها، وتعطي تعريفا دقيقا للعوامل التي تؤثر في مزاجه، وتستطيع من خلال الإلمام بها أن تصدر حكمها فيه وتكّون نظرتها عنه.

ويظهر هذا في كثير من توجهات الإنسان، خاصة في ميدان السلوك والفكر والاعتقاد، فمهما قضى المرء زمانه في خدمة فكر نزل على آرائه وانتحل أفكاره، إلا أنه سرعان ما نجد نشأته

الأولى والتي كانت على فكر مغاير لما انتحله سلفا، قد فرضت نفسها ومالت إليها نفسه من جديد، ورجحت كثير من مضامينها ومعاييرها.

حتى في الجانب السلوكي والأخلاقي، فلو أن المرء عاش في وسط منحل يتنكر للأخلاق والقيم، ويدعو لتفشي الرذيلة والتحلل، فإنه مهما توغل في هذا الوسط، نراه يحن في كثير من الأحيان إلى نشأته الأولى التي قامت على التدين واحترام الدين، والتي حولت حياته لصراع كبير بين ما كان عليه من ماض، وبين ما صار عليه من حاضر، يضاد أحدهما الآخر.

أحمد محمد حسنين باشا، هذا الاسم المعروف في تاريخ الأسرة الملكية العلوية في مصر، فقد كان هذا الفلاح ابن الشيخ الأزهري محمد حسنين، وخريج جامعة أكسفورد وصهر الأسرة المالكة والأمين الأول لجلالة الملك، ورئيس ديوان جلالة الملك فاروق، والرجل الذي يقيم الوزارات ويسقطها، كانت لهذا الرجل كثير من المغامرات في فترة شبابه، فقد كان بطل مصر في مبارزة الشيش (السيف) ونازل أبطالها في أوروبا وانتصر عليهم، وكان أول مصري يقود طائرته الخاصة من أوروبا إلى مصر بنفسه حتى أنها سقطت منه مرتين في فرنسا وكاد يموت بسببها مرتين في إيطاليا.

وكانت له مغامرة مشهورة، حينما جاب مجاهل الصحراء الغربية مع الرحالة الإنجليزية السيدة روزيتا فوربس، وكان حسنين منظم الرحلة وقائدها وصاحب فكرتها، وقد تستر على زميلته الرحالة، فزعم أنها زوجته وأنها مسلمة، وألبسها ثيابًا عربية وأسدل على وجهها حجابًا كثيفًا، حتى يسمح لها زعماء البدو بالتوغل في صحرائهم والتعرف على أسرارهم.

وعاش حسنين مع صديقته في الصحراء أسابيع عديدة، وكانا ينامان في خيمة واحدة، لكنه لم يحاول أن ينال منها شيئا، لكنها هي حاولت، ولكنه أبى ورفض وأعرض.!

وسأله مرة الصحفي اللامع محمد التابعي وقال له معلقًا على هذا النقطة بالتحديد: وهل قدت قميصك من دبر؟

فضحك أحمد حسنين وقال: كلا فإن المسألة لم تصل إلى هذا الحد، فقال التابعي: لكنني لا أفهم! لقد كنت يومئذ في عنفوان شبابك، وروزيتا امرأة جميلة تُشتهى، وكنتما في الصحراء

أسابيع عديدة، ووحدكما عشرات الليالي في خيمة واحدة، وكان مرافقوك من البدو يعتقدون أنها زوجتك، وما أنت دائما بولي الله أو قديس، ماذا إذن؟!

فضحك حسنين باشا مرة أخرى وقال: لأن الأزهر انتصر هذه المرة على أكسفورد.

أي أن النشأة الدينية والأزهرية في دار أبيه، وما ورثه في دمه عن أبيه العالم الأزهري المتمسك بأحكام دينه الحنيف، كل هذا انتصر على عوامل التحرر والتحلل التي تركتها في نفسه دراسته في جامعة أكسفورد.

وسأله التابعي: وهل انتصر الأزهر دومًا في جميع معاركك الشبيهة التي نازلت فيها المرأة، أو تحدتك فيها المرأة؟

قال كلا ولكنني في هذه المرة كنت حريصًا على رضاء ربي ورحمته، فقد كنا في صحراء مجهولة، وأسباب الهلاك تحيط بنا من كل جانب، وكنت أعد نفسي مسؤولا عن سلامة القافلة ونجاة أفرادها، فضحك التابعي وقال: إذن لقد تأبيت وأعرضت لا زهدًا في روزيتا، وإنما خوفًا من أن يحل بك غضب الله وأنت في جوف الصحراء؟ فقال: نعم.

السياسة نجاسة

تخيل أن يكون هذا التصور القميء هو المنهج الذي يؤمن به ساستنا اليوم!

فأحدهم يقرر أن السياسة نجاسة وقذارة، وكلما أمعنت في القذارة كلما كنت سياسياً بارعاً وناجحاً.!

السياسيون والإعلاميون في بلادنا يستخدمون اليوم أحط الأساليب، وأقذر الطرق في محاربة خصومهم، فهم لا يتورعون أن ينالوا من أعراضهم، ويخوضوا في حرماتهم، ويفترون عليهم الأكاذيب ويختلقون عليهم من التهم والجرائم الافتراءات ما يعجز الشيطان عن تدبيره وحبكه.

يلوكون بألسنتهم في كل شيء، وفي أي شيء..

في الدين والشرف والذمة.. يتآمرون ويغدرون بلا حرج أو حياء، حتى صارت القيم والفضائل، رخيصة لا وزن لها في حياتهم.

وأعجب من إحدى القنوات الفضائية، التي يطل منها مذيع وقح، يسب خصومه بأقذع الألفاظ، وأنبا الجمل، ويلوح لهم بالإيحاءات الجنسية، والإشارات الخارجة التي يعف القلم عن وصفها.!

ولكنها الصورة المثلى للسياسيين اليوم في بلادنا، وكل من يتكلم في السياسة من إعلاميي الضلال والزيف، الذين تجردوا من الدين والخلق والضمير، وصار الشعب كله أسيراً لزورهم وباطلهم.

ولعمري، كيف لنا في ظل هذا العفن، أن نخرج أجيالاً ترفع راية الحرية، وتقود أمتنا للنهوض، ولواء الفضيلة في أرضنا منكس في الوحل؟!

إننا نريد أجيالاً تتحلى بالمروءة والشهامة، وتقدس الضمير والخلق، وتحترم الآخر وتُعلي من قيمة الشرف.

نريد أجيالاً راقية ترفض الإقصاء والتسفيه، وتؤمن بأن الوطن مظلة تسع الجميع بأفكارهم المتباينة ورؤاهم المتغايرة.

نريد أجيالاً تنصف الخصم، وتأبى الغدر، وتعف عن الخيانة والمؤامرة، وتركل كل ما يُزري بالشرف والرجولة؟!

ولكن.. كيف تتحقق هذه الصورة المُثلى من جيل المستقبل، وهذه العصابات المتربصة تسيطر على حياتنا السياسية والإعلامية، وتستبد بكل مراكز التوجيه والتأثير؟ حتى خلقوا أجيالاً تُعاني السطحية والأمية السياسية، وضعف الوعي، وخرجت عقول متنافرة متناحرة ترفض الحوار، وتُقصي الآخر، ولا تقبل إلا بدحر خصومها وإبادتهم، وكما قيل:

"يقدم بعضهم بعضاً حنطة لرحاه"

لكي الله يا بلادي المسكينة، من مستقبل مظلم على يد هذه الطغمة الآثمة.

واسمح لي أيها القارئ أن نرجع للوراء فنُعايش الساسة القدامى، حتى نقف على شيم الرجال ومروءة الأبطال، ونعرف كيف كان هؤلاء يديرون معاركهم، وكيف كانوا يتحلون بشرف الخصومة، لقد كانت السياسة فيما مضى تعني النخوة والمروءة، ولا يكون السياسي سياسياً،

حتى يكون رجلاً تتوفر فيه ما في هذه الكلمة من معاني النبل والنجادة.. أما صراعهم فإنه صراع يتزيا بأخلاق الفرسان، فمهما كان الخلاف والتباين، فلا يمكن أبداً أن أهدر في خصمي حق الوطنية والجيرة واللغة والدين.

ما أشرفك يا بن أبي طالب، حينما علمت أن اثنين من كبار أنصارك، يجهران بشتم معاوية ابن أبي سفيان، ولعن أهل الشام جميعاً، فأرسلت إليهما أن يكفا عن هذا الشتم واللعن، فلما قدما عليك قالا: يا أمير المؤمنين ألسنا على الحق وهم على الباطل.؟

فقلت: بلى، ورب الكعبة.

قالوا: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟

قال الإمام: كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين.

قولوا اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لج به"

أما الأحزاب السياسية فيما مضى، وقبل انقلاب يوليو ١٩٥٢م، فكانت الخلافات بينها كبيرة، إلا أنها لم تتدنى لهذا المستوى السحيق، الذي تدنت إليه أحزاب اليوم، يصف الأستاذ عمر التلمساني حالة الأحزاب في هذه الحقبة فيقول:

"كانت الخلافات بين الأحزاب في ذلك الحين على أشدها، ولكنها كانت خلافات بين رجال، مهما اشتدت الخصومة بينهم في القضايا العامة، فقد كانت علاقاتهم الخاصة على أحسن ما تكون، كانوا يتزاوجون ويسمرون، بعيداً عن العداء الشخصي الذي نراه منتشراً بين الأحزاب القائمة ورجالاتها، وما من شك أن الحزبية في صورتها الحالية، نكسة مريرة في عالم الديمقراطية."[١]

الأستاذ عمر يصف الحالة الحزبية التي رآها في آخر حياته، بأنها نكسة مريرة في عالم الديمقراطية، فكيف به لو امتد به العمر، ليرى ما نراه من وحشية الليبراليين واليساريين،

---

[١] – ذكريات لا مذكرات– عمر التلمساني

الذين يسبحون في دماء إخوانهم، ولا يؤمنون إلا بالقمع والإرهاب، وتحولت إلى أحزاب فاشية عنصرية، تمزق وحدة البلاد، ولا ترى بقاءها إلا على جماجم المخالفين.

إن صورة الأحزاب المصرية التي عبر عنها الأستاذ عمر في عهدها القديم، كانت رائعة، وكان رجالها أناس محترمون، تفخر بهم مصر التي عقمت في هذا الزمان أن تلد أمثالهم.

الأستاذ ثروت أباظة، يصور لنا نفحة من أخلاق هذا الجيل المهذب، وهو يتحدث عن والده السياسي الكبير، وعضو حزب الأحرار الدستوريين فيقول:

" أذكر لأبي قصة جديرة أن تُروى ، فقد كان المدرس الخاص الذي يُدرس لي مادة الرياضة، على صلة وثيقة بأسرة وزير وفدي كبير، وكنت خليقاً أن أذكر اسم الأستاذ، لولا خشيتي أن يكشف اسمه عن شخصية الوزير الوفدي، وهو أمر لا أقبله، فإن فعلته أكون بهذا قد خرجت عن النهج الذي انتهجه أبي، والذي سيتضح لك في هذه القصة، جاء أستاذ الرياضيات، وطلب إلى أبي أن يحدد موعداً ليلقاه فيه أخو الوزير الوفدي الكبير، وجاء الأخ والتقى بأبي، وإذا به يُقدم أوراقاً لأبي، تُثبت أن الوزير الوفدي، يأكل أموال إخوته ويغتصبها لنفسه، وطلب الأخ على أبي أن ينشر هذه الوثائق في جريدة السياسة، التي كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين، وإذا بأبي يقول له:

يابني نحن لا نحارب خصومنا السياسيين بالإيقاع بينهم وبين إخوتهم وأسرهم، فهذه أمور لا تتصل بالسياسة الشريفة، أنا لا أعرف أخاك معرفة شخصية، ولكنني مستعد أن أدعوه إلى بيتي وأدعوك أنت وإخوتك معه، وأصفي ما بينكم من خلافات في جلسة أسرية، أما أن أنشر هذه الخلافات الخاصة، فليس من أخلاقنا، وانصرف أخو الوزير الوفدي ومعه أوراقه..

هكذا كانت السياسة في فهم هؤلاء، شرف ورجولة ومروءة.

وهكذا كانت الخصومة في أخلاقهم.

حفظ للأعراض واحترام للذات وتقدير للأشخاص..

فهل يعي الفاجرون في خصومتهم، هذه النماذج المشرفة المبهرة، هؤلاء الأفاكون الذين تسمع أحدهم في قنوات الإفك وهو يشيطن خصمه، ويسمه بالإرهاب والخيانة والعمالة، ويطالب بقتله وشنقه وصلبه.!

هل يقرأ سياسيو اليوم عن هذه النماذج الراقية، حتى يتعلموا معنى السياسة المحترمة، ومعنى أن أكون رجلاً في خصومتي، شريفاً في عدائي؟!

التحول الخطير!

شيء عجيب حينما يتحول الإنسان وتتغير سماته التي جُبل عليها، وهذا التحول يعني في المقام الأول، أنه استبدل إنساناً بإنسان آخر، وأدخل في جوفه روحاً غير الروح التي كانت موجودة فيه وفق عوامل خارجية طارئة اضطرته إلى ذلك.. وما أسعده لو كان التغير للفضائل والمكارم، وما أشأمه لو كانت للخسران والرذائل.

بعض الناس يتعرضون في حياتهم لمحن تُغير من نظرتهم للحياة فتقلب طريقتهم وأسلوبهم وتفكيرهم وعلائقهم، وبعضهم لا يتعرض لمحنة، وإنما تعتريه همة في نفسه بأنه لا يجب أن يكون على ما هو عليه.. وآخرون يقلدون الزعماء، فيدرسون سيرتهم ويستحضرون أرواحهم في أجسادهم، فتسيطر على حركاتهم وسكناتهم.

وهناك من تداهمهم الفتن بصنوفها المختلفة، فيقعون في أسرها ولا يفلتون من غواياتها، وبعد أن كانوا آمنين مطمئنين منها، تلفحهم بنارها فَيلِغون فيها، ولا ينجو من سُعارها إلا أولو العزم من الرجال، والشهوات أعاذنا الله، عواصف هادرة، تزلزل كيان النفس، وتهد ثباتها، وإذا لم يقابلها إيمان عصِي فإن شلالها الجارف، يحتضن الإنسان لعالم الضياع، فما بين شهوات (المال- المرأة- الملك) يتقلب الناس يُمتحنون ويُبتلون.

نرى كثيرًا من الضعفاء صاروا أقوياء، ونرى كذلك أقوياء صاروا ضعفاء، وهناك أغنياء صاروا فقراء، وفقراء صاروا أغنياء، فالأيام دول ولا تستقر الدنيا على حال، ولكن لا ضير أن تتغير المظاهر، فيتغير مأكلك وملبسك ومسكنك، فهذه كلها عوارض لا قيمة لها، أما أن

تتغير نفسك ويتحول قلبك، ويتبدل تفكيرك وسلوكك، وتنقلب دنياك من حال إلى حال، فهذا هو التحول الخطير الذي يُثير العجب والغرابة، ويستدعي البحث والدراسة.!

إن التحول في حياة الإنسان شيء وارد، ويبدو أنه كامن في الطبائع البشرية، والإنسان رهين لحظة و موقف أو نزوة تقلب صورة حياته وألوانها، ولقد قيل:

ما سمي القلب إلا من تقلبه * فاحذر على القلب من قلب وتحويل**

وقال آخر:

ما بين طرفة عين وانتباهتها * يُبدل المرء من حالٍ إلى حالِ ...**

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يكثر أن يقول : يا مُثبت القلوب ، ثبت قلبي على دينك ، قالوا : يا رسول الله ، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا ؟ قال: نعم ، إن القلوب بين إصبعين من أصابع الله يقلبها" ، فالثبات أمر قد يُهدده التغير في المواقف والأفهام.

الأمثلة كثيرة من هؤلاء الذين تغيرت حياتهم، والتاريخ مليء بذكر من تبدلت دنياهم، وتحولت مواقفهم، فهذا قارون الذي يقص القرآن بطره وكفرانه لنعمة الله، ويحكي عن كنوزه العظيمة، التي ينوء بحملها العصبة أولو القوة، إلى أن خسف الله به وأمر الأرض فابتلعته وثرواته.

ولكن.. هل سألت نفسك يوماً من هو هارون؟

أو حاولت البحث عن حياته قبل أن يَكفر نعمة الله عليه؟

إن الأسفار تُخبرنا عن قارون، وكيف كان قبل الثروة؟ كان شخصاً آخر غير الذي نعرفه، وغير الذي قص علينا القرآن كفرانه، ذكر عنه أنه كان من أعبد بني إسرائيل، وكانت له المكانة الدينية في قومه بعد موسي وهارون، وكان من أقرأ الناس للتوراة، حتى أنه سمي المنور لحسن صوته بالتوراة، بل كان من السبعين الذين اختارهم موسى للقاء الله، وهم من الصفوة في قومه، ووقع قارون في فتنة المال فطغى وتكبر، وحدث في حياته ذلك التحول الخطير الذي قاده للخسف والهلاك، لقد بغى على قومِه وتكبر بما أُوتي من الأموال العظيمة المُطغية، أعطاه

[1] – رواه الترمذي: ٢١٤٠، وأحمد: ١٢١٢٨، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح: ١٠٢

الله من كنوز الأمْوال شيئًا كثيرًا ما إنَّ مفاتحه لتنوءُ بالعصبة أولي القوَّة، - والعصبة من العشَرة إلى التِّسعة إلى السَّبعة- أي: إنَّ مفاتح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القويَّة عن حَمْلِها؛ هذا في المفاتيح، فما ظنُّك بالخزائن؟

ونصحه الواعظون العقلاء من قومُه: لا تفرحْ بهذه الدُّنيا العظيمة وتفتخِر بها؛ فإنَّ الله لا يحبُّ الفرحين بها، ﴿ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾، فلا نأمرُك أن تتصدَّق بِجميع مالِك وتَبقى ضائعًا، بل أنفِق لآخرتِك، واستمتِع بدُنياك، وأحسِنْ إلى عباد الله، ﴿ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالتكبُّر والعمل بمعاصي الله.

وجاء رده عليهم قاطعاً ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ﴾؛ أي: حصلت هذه الأموال بكسْبي وجهدي ومعرفتي وعلمي، وكانت العاقبة وكان المآل الوخيم، الذي جعل قارون عبرة للمعتبرين، تُتلى قصته في كتاب الله عبر الأزمان والأجيال، ولعمري.. ليس في قصته أكثر عجباً من تحول حياته، وتغير حاله، وتبدل طباعه، فبعد أن كان من العُباد الزهاد قراء التوراة، إلى الجاحد المتكبر الذي يغضب الله عليه ويخسف به الأرض.

وفي صفحات تاريخنا الإسلامي شخصية تستحق وضعها في هذا المقام، وكم يحيرك تغيرها وانقلاب أمرها، وتبدل صورتها، ولا تملك حيال سيرتها إلا أن تندهش لهذه النفوس التي تنسى فتنقلب لضد ما كانت عليه.!

والشخصية التي نتحدث عنها هي من عجائب التاريخ الإسلامي، ومن أصحاب البصمة فيه، ومن المتبدلين من حال إلى حال.. إنه (عبد الملك بن مروان) الذي قال فيه الشعبي:

"ما جالست أحداً إلا وجدت لي الفضل عليه إلا عبد الملك بن مروان ؛ فإني ما ذاكرته حديثاً إلا زادني فيه ، ولا شعرا إلا زادني فيه"

وقال (ابن كثير):" كان عبد الملك قبل الخلافة من العُباد الزهاد الفقهاء، الملازمين للمسجد، التالين للقرآن"

وقال عنه (نافع):"لقد رأيت المدينة وما فيها شاب أشد تشميراً، ولا أفقه ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك بن مروان"

وقال (الأعمش عن أبي الزناد) :"كان فقهاء المدينة أربعة: سعيد بن المسيب، وعروة، وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان ؛ قبل أن يدخل في الإمارة."

وروى البيهقي أن عبد الملك وقع منه فلس في بئر قذرة، فاكترى عليه بثلاثة عشر دينارا حتى أخرجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنه كان عليه اسم الله عز وجل.

وقال (ثعلب عن ابن الأعرابي):

"لما سُلم على عبد الملك بالخلافة، كان في حِجرهِ مصحف، فأطبقه، وقال: هذا فراق بيني وبينك."

ألهذا الحد كان (عبد الملك) من التقوى والعلم حتى أنه يُضاهى بسعيد بن المسيب إمام التابعين؟! ألهذا الحد يشهد له الشعبي بقامته وعلمه، حتى أنه يسأله في العلم من العلوم، فيزيده فيه ويشهد بأنه لا يفضله؟!

نعم هذا هو عبد الملك قبل الخلافة.. فماذا حدث له؟ وكيف تبدل أمره؟!

لم يلبث عبد الملك أن خرج من زُمرة العباد الفقهاء، إلى دنيا الإمارة والملك، خرج من طمأنينة النفس وراحة الضمير، إلى الصراع على الملك والتقاتل عليه، فسفك الدماء وأزهق الأرواح. قاتل أكثر من دعوة، وعلى أكثر من جبهة.. جبهة ابن الزبير في الحجاز، وجبهة المختار بن أبي عبيد في الشام، وجبهة الروم، وجبهة أفريقيا، ناهيك عما كان يُهدده من بعض أنصاره والموالين له.. نعم لقد تحول عبد الملك تحولا خطيراً، وكأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر.. وإذا رأيته في الخلافة، فلا يمكن أن تصدق أنه ذلك العابد الفقيه، الذي كانت رتبته تطال رتبه سيد التابعين (سعيد بن المسيب).!

انظر إليه كيف صار شرساً في صراعه على الحكم.!

يقول ابن كثير:" وكان عبد الملك له إقدام على سفك الدماء، وكان عماله على مذهبه ؛ منهم الحجاج والمهلب، وغيرهم"

وحج عبد الملك سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين، فكان مما قال في خطبته:

أما بعد.. فإنه كان من قبلي من الخلفاء يأكلون من المال، ويؤكلون، وإني والله لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، ولست بالخليفة المستضعَف - يعني عُثمان - ولا الخليفة المداهن - يعني مُعاوية - ولا الخليفة المأبون - يعني يزيد بن معاوية - أيها الناس، إنا نحتمل منكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد راية، أو وثوب على منبر." [1]

ثم تأمل ماذا فعل بمصعب بن الزبير، وهو الذي كان من أعز خلانه ومن أحب الناس إليه قبل توليه الإمارة.!

"كان عبد الملك يحب مصعباً حباً شديداً، وكان من خلانه قبل الخلافة، فقال لأخيه محمد: اذهب إليه فأمنه، فجاءه، فقال له: يا مصعب قد آمنك ابن عمك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهب حيث شئت من البلاد، ولو أراد بك غير ذلك لكان، فقال مصعب: قُضي الأمر، إن مثلي لا ينصرف عن مثل هذا الموقف، إلا غالباً أو مغلوباً، وقاتل مصعب حتى قتل، وقطعوا رأسه وأرسلوها لعبد الملك، فلما وضع بين يديه بكى وقال:

والله ما كنت أقدر أن أصبر عليه ساعة واحدة من حُبي له، حتى دخل السيف بيننا، ولكن الملك عقيم! ولقد كانت المحبة والحرمة بيننا قديمة، متى تلد النساء مثل مصعب؟ ثم أمر بمواراته ودفنه هو وابنه وإبراهيم بن الاشتر في قبور بمسكن بالقرب من الكوفة." [2]

إن الحياة دوراة.. والنفس لا تستقر على حال، ولا يدري أحدنا ما يخبئه له الدهر، وما أرجوه ألا يكون التحول في حياتي على حساب ديني وعلاقتي بربي.. و من هنا أسارع للدعاء النبوي راجيا أن يكون منجاتي: اللهم يا مثبت القلوب ثبت قلبي على دينك.

فما دون الدين هين، وما دون الله عدم لا قيمة له.

عالجوا الوهم بالوهم

سأل الشاعر كامل الشناوي صديقه يومًا عن حالته الصحية فقال له: هي جيدة جدًا والفضل يعود لك، فقال كامل: ألم تعد تشكو من الانقباض والارق ووجع الصدر؟ فقال الصديق:

---

[1] - البداية والنهاية

[2] - المرجع السابق

كل هذه الاعراض زالت حينما تحدثت مع الدكتور (ميم) في التليفون، والفضل لك حينما أعطيتني نمرته واتصلت به، وشرحت له حالتي، ونصحني أن أستمر في الدواء الذي وصفه لي من قبل.

وهنا ضحك كامل الشناوي كثيرًا أمام صديقه بصورة غير عادية، حتى سأله لماذا تضحك؟ لكن كامل كتم ضحكه وتحدث في موضوع آخر.

وإذا كان الصديق قد تاه عن سؤاله والاستفسار عن ضحك الشاعر الكبير، فإننا لم نسهو أو نغفل ونريد معرفة السبب الذي دعاه لهذا الضحك الهستيري، وهو ما أفصح عنه في إحدى كتاباته حين أنبأنا بالأمر!

كان هذا الصديق يشكو من آلام في ظهره وصدره، وتوهم أنه مريض بالقلب، فدخل المستشفى وأجرى الفحوصات والتحليلات والأشعة اللازمة، وزار عددا كبيرا من الأطباء الذين طمأنوه على حالته، ولكنه لم يطمئن، وقال لصديقه كامل: إنه يريد عرض نفسه على الطبيب المشهور (ميم)

ولكن الوصول لهذا الطبيب صعب جدًا، وبمساعدته استطاعا الوصول اليه، وقام الدكتور بمعاينة المريض، وقرأ تقارير الأطباء في حالته، وأكد له في النهاية: أنه لا يحتاج إلا إلى تناول ثلاث حبات من فيتامين ب كل يوم.

واطمأن الصديق ومارس حياته كإنسان طبيعي، وبعد مرور أسبوع اتصل بكامل وسأله عن نمرة تليفون الدكتور: فقال له: إنه من الصعب جدا أن نحصل عليها، فقال صديقه: إنني مريض عندي أرق شديد، وإذا لم يراني الطبيب هذه الليلة فلن أعيش حتى الصباح.

أدرك الشناوي أن صاحبه قد أصيب بمرض الوهم والوسواس، وأن العلة ليست في جسده، وإنما في نفسه ووهمه، فقال له: إن الدكتور (ميم) يعود الآن أحد الأطباء ويمكنك أن تتصل به على هذا الرقم، بعد فترة يسيرة من الزمن، وأعطاه كامل نمرة تليفونه الخاص.

وبعد دقيقتين دق جرس تليفون الشناوي، وجرى الحديث بينه وبين صديقه الذي يعتقد أنه الطبيب، وأخذ كامل يغير من صوته، فعرّفه المريض بنفسه، فقال له: تذكرتك هل تواظب

على تناول فيتامين ب؟ فقال: نعم لكني شعرت الليلة بأرق مصحوب بألم خفيف في الظهر..

فقال له كامل: اشرب فنجان من النعناع الساخن، واستمر في تناول فيتامين ب، وبعد أسبوع اتصل بي لأراك في العيادة، فقال الصديق متشكر جدا يا دكتور.

وفي اليوم التالي اتصل كامل الشناوي بصديقه وسأله: ماذا صنعت أمس؟ فحكى له ما دار بينه وبين الدكتور وقال: إن هذا الرجل ساحر، فالمكاملة التليفونية معه أراحت أعصابي وهيأت لي نومًا عميقا مريحا.

قال كامل: ما أشقى الذين يمرضون بالوهم فيلجؤون إلى الطبيب والدواء، مع أن مرض الوهم لا علاج له إلا الوهم.!

ولعل هذا الموقف يذكرنا بقصة أحد وزراء خوارزم، حينما مرض بالوهم، وتحركت أمعاؤه ذات ليلة، وشعر ببعض الألم الموجع، واعتقد أن ثعبانًا بداخل جسمه، وهو الذي يبعث على التحرك والألم، وكبر هذا الوهم في ذهن الوزير وسبب له مضاعفات كبيرة من الألم النفسي المُر، وجعل يفضي للأطباء بما يحس به، ثم يقول له الأطباء: اطرد هذا الوهم من نفسك، فلا يزيدونه إلا هيجانا وغضبا، ويرسل في إحضار أطباء آخرين.

وكان هناك (أبو منصور البلخي) من أشهر أطباء عصره، وقد عرف بمأساة الوزير فذهب لعيادته والاطلاع عليه قبل أن يطلبه، فدخل عليه وكأنه خالي الذهن من حديث وهمه، وجعل يفحصه في جد ملزم، ثم صاح صيحة المبهور، ما هذا؟ عجيب! عجيب! إنك يا سيدي تحمل ثعبانا في بطنك، ولابد من العمل على خروجه، فانطلق المريض يُثني على الطبيب، ويمدح تشخيصه، ويقول: هذا ما أحس به تماما فما العمل؟

فقال البلخي: لا تأكل الليلة شيئا، وسأحضر في الصباح بعض المسهلات لتشتريها وبداخلها ما يقتل الثعبان، فيخرج على الفور، ثم خرج ليبحث عن ثعبان صغير في الجبل، حتى عثر عليه وقتله، وحمله في جيبه، وحين حان الموعد، أعد الدواء المقترح، فتناوله المريض، ثم هيأ له إناء للاستراحة ووضع به الثعبان في جانب غير منظور، وفعل المسهل فعله فنهض المريض

ليتبرز في الاناء وسرعان ما فحص الطبيب ما رأى وصاح: الحمد لله، قتل الثعبان قتل الثعبان الان قد برئت وشفيت!

وهكذا استطاع الطبيب الذكي بالعلاج النفسي أن يريحه من وهمه، حتى يريح جسده.

قال الطاعون يوما: إني ذاهب إلى البلد الفلاني لأقتل خمسة آلاف.

وبعد أيام وجدوا أن الموتى قد بلغوا خمسين ألفا، فسألوا الطاعون: ألم تقل إنك اهب لقتل خمسة آلاف فقط، فلم مات خمسون ألفا؟!

فقال: أنا لم أقتل إلا خمسة آلاف والباقي قتلهم الخوف أو الوهم.

لا شأن لكم بذنوبي

أنا واحد من الذين يؤمنون بالفرق الكبير، أو التفريق الكبير، بين الخلق الذاتي والسلوك العام، فليس معنى أنك مذنب في معصية من المعاصي أنك غير مؤهل لحمل أمانه أو دعم رسالة أو تحمل مسؤولية، السلوك الذاتي لا يمكن أبدًا أن يهدم قدرة الإنسان وإمكاناته ومؤهلاته وقدراته، ومن يؤمنون بهذا التأثير، فنظرتهم إليه فلسفية ومثالية، لا تحمل من الواقع شيئًا.

وقديمًا تحدثت بأنني لا أقتنع بقصة الإمام البخاري، وموقفه حينما سافر مسافة طويلة، ليأخذ حديثاً عن أحد رواة الحديث، ورآه يكذب على دابته التي انفلتت منه، يوهمها أن معه شيئاً تأكله، فتركه وعاد دون أن يسأله، وقال: إن الذي يكذب على الدابة، لا آمن أن يكذب علي.!

وكنت أرى أنه تشدد يصل إلى درجة التطرف في النظر والتقييم والمبالغة الزائدة عن الحد، ولما تحريت عن القصة لم أقف لها على أصل، ولا أعلم من رواها وصدرها للمشهد العلمي.!

بل ذكرت أن العقاد لم يكن من الملتزمين بسمت الدين وسنته، ولكن الرجل سخر قدارته العظيمة في خدمة الإسلام، والدفاع عن تراث الأمة ودينها، حتى قيل عنه: إنه أعظم من دافع عن الإسلام في القرن العشرين، وكان أئمة الفكر الإسلامي، وعلى رأسهم محمد الغزالي يعظمون دور الرجل وجهوده.. فهل نرد جهاده وحسن بلائه لعدم تسننه والتزام؟

وعلى المقابل تلح على صورة أبو محجن الثقفي، الذي كان يشرب الخمر حتى غيبت عقله، فحبسه سعد حتى يقيم عليه الحد، فلما أفاق الرجل، ذرف الدمع لأنه حرم المشاركة في الجهاد،

وقد كان الفارس المغوار، ولما رقت له زوج سعد وأطلقته، امتطى بلقاء زوجها ودار يمزق صفوف الفرس، ويرعد بنيان كتائبهم.

كان سعد زغلول مدمنا للقمار، لكن الرجل حينما تقلد الزعامة، صار زعيم ثورة وداعية تحرير، ونصب كل جهوده لتحرير وطنه، كما هو مرصود في التصور الغالب لحياته، ولو أننا بصدد القمار لقلنا له: تنح جانبًا فلست أهلا لهذه الزعامة أو هذه الصدارة.! كما يحاول بعض مفكرينا أن يحط من قدره ومكانته، بسبب القمار وممارسته له.

بل هل تتذكر تلك البغي التي رأت كلبا يلهث من شدة العطش فملأت خفها وسقته فغفر الله تعالى لها؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر: (أن امرأة بغيا رأت كلبا في يوم حار، يطيف ببئر قد أدلع لسانه من العطش، فنزعت له بموقها، فغفُر لها) [1]

يمكن أن أكون شاربًا للخمر أو مقامرًا أو مدخنا أو عاصيًا بأي لون من المعاصي التي لا تضر الغير، لكن هذه المعاصي لا تمنعني من نصرة ديني، وإقامة واجبي نحو رسالتي، وفي الحديث الصحيح: (إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.) ولا يحق لأحد أن يهدم جهودي أو يقلل من إمكاناتي، لقد كان من الخلفاء الذين زادوا رقعة الإسلام، وانهالوا على الدنيا بفتوحات دينهم المشرقة، يشربون الخمر، ولعل الذين يحاولون تأجيج هذه المعاصي الذاتية، ليربطوا بينها وبين عدم صلاحية صاحبها لأي شيء، إنما يفعلون ذلك لتضخيم الخصومة والعداوة بينهم وبين من يبغضون، ويستغلون عاطفة المستمعين الدينية لتحقيق هذا الغرض.

ولسي معنى كلامي أن يفتح المجال، أو أنني كما سيدعي المرجفون أروج للمعاصي، وأن ننظر للعصاة نظرة طبيعية فلا نتنكر لهم ونرضى بمعاصيهم ونألفها ولا نؤاخذهم عليها، ومن يظن ذلك أو يظن أن نتاج كلامي يُسفر عن ذلك، فهو ضيق الافق لا يستطيع الفهم، فإنني لا أقرر بنظرتنا هذه أنها مبدأ عام، ولكنها نظرة دقيقة جدًا وفي أقصر الحدود، وتطبق على شخصيات

---

[1] - رواه مسلم

[2] - الصحيحان

نادرة، حاصة إذا ما كانت حاجتنا إليهم ملحة وضرورية، لقد كان حسن البنا يدعو فاروقًا أن ينادي لنفسه خليفة للمسلمين، وهو يعرف تمامًا أنه لا يليق على المستوى الشخصي لمقام الخلافة، ولكن لديه الإمكانات والقدرات لتحقيق هذا الحلم العظيم الذي قضى عليه الاستعمار وعملائه.

ذكر الأستاذ عمر التلمساني –رحمه الله–، في كتاب "ذكريات لا مذكرات: "إن البنا ذهب إلى محافظة البحيرة في إحدى جولاته الدعوية، فاستضافه أحد الأثرياء في تلك المديرية، فلما جلس إليه واستمع منه، قال: إن ما تحدثني به شيء جميل، وإني لرجل خير، أحسن إلى الفقير وأساعد المحتاج وأصلي وأصوم، ولكن فيّ عيب كبير أظن أنني لا أستطيع الإقلاع عنه.

قال الإمام البنا: وما العيب الذي لا تستطيع الإقلاع عنه؟

قال الرجل: إني أشرب الخمر أحيانًا، وهذا ما يمنعني من الانضمام إلى الجماعة.

قال له الإمام: تعال إلينا، إننا نقبلك بحالتك، فدُهش الرجل".

ما بيني وبين الله تعالى إثم يحاسبني عليه، لكنني عبقري ولي قدرات عظيمة قد تفيد الأمة، فلم يتم القضاء علي من أجل بعض ذنوب أو هنات أدمنتها نفسي؟ ولكنها مهما تأصلت فيها، لا يمكن أبدًا أن تجور على شعوري بالمسؤولية وإحساسي بالواجب، بل الأفدح من هذا، أن تتم معاقبة بعض هذه الشخصيات على ذنوب قديمة قد تابوا منها، ولكنها معلقة بتاريخهم.

ولله در القائل:

خذ بعلمي ولا تركن إلى عملي ** واجن الثمار وخل العود للنار

إن أمة تنظر بهذا المقياس، أمة جاهلة، ينقصها كثير من الوعي في زمن يجب أن تتسع فيه المدارك والأفهام لتحتل مكانتها بين الأمم.

لا تكفروا بكفاح غيركم

بعض قصار النظر.. لا تتحقق البطولة والزعامة في أذهانهم إلا بالسيف والمدفع والرصاص.!

وأنا لا أنكر هذا أبدا.. لكنني في نفس الوقت لا أنكر بطولة وزعامة، اتخذت طريقا للإصلاح غير طريق السيف، وترى فيه نفعا عظيما لمصلحة الأمة، خاصة إذا عاصروا قادة الثورات من

أبطال السيف والمدفع، وكأنهم يقولون لنا: إن الجهاد ميادين متنوعة، وأشكال متفرقة، وليست مقصورة ولا متقوقعة على لون واحد، هو لون الحدة والدماء.

ربما يكون إيمانك بالأولويات شديدا لحد التطرف، لكن هذا لا يعطيك الحق أن تظلم وتتهم من رأوا مقاومة المحتل والعدو في ميدان آخر، هم فيه أربابه وتوفرت لهم فيه عزائم محمودة.

انظر هنا، حينما ترى الاستعمار قويًا يغلبك بقوة سيفه ومدفعه، وعلى جهة أخرى خلت له الأجواء لينفذ فيك وفي أمتك مخططاته، فيفسد عليك لغتك ويشوه تراثك، ويضلل تاريخك، ويدمر تعليمك، حتى تكون متخلفا رجعيا جاهلا لا قيمة لك، ولا سلاح تملكه لتواجهه به، ماذا يضيرك وقتها لو خرج من أبناء أمتك ومصلحيها من ينازله في هذه الميادين، وينتصر عليه ويفسد مؤامراته، فيحمي لغتك ويصون تاريخك، ويسلم تراثك ويدفع أبناء وطنك للتعليم؟!

هل تتهمه وقتها بأنه خائر جبان، لأنه يفر من معركة السيف والتحدي الدموي؟!إنك لا شك وقتها قاصر البصيرة، حينما تغفل أن للمعركة وجوه أخرى وميادين متعددة، والنصر فيها يحتاج لتكاتف كل الجهود وعلى كل المستويات.

انظر للإمام محمد عبده، لقد كان الرجل في بداية حياته ثائرًا لحد التطرف، حتى أنه أبدى الرغبة في اغتيال الخديوي، واتهمه بخيانة الأمة، وبعد أن استقر به المقام في طريق الإصلاح الاجتماعي، وعامل الأحداث بشيء من الواقعية، سلك طريقة في التربية والتعليم، وعمل على تحصيل أي مكسب من المحتل الغاصب يمكن أن يقيم به أود الأمة، حتى إذا ما شبت، استطاعت أن تنتزع بقية حقوقها، لكن قصار البصر وضعاف البصيرة يتهمون الرجل بما لا يليق به، ولا يتناسب مع تاريخه وشخصه وأفكاره.

وكذلك كان علي باشا مبارك، فلم يشترك في الثورة العرابية، وكان من المتوقعين لفشلها، لكنه لم يكفر بها أو يهاجمها، بل ورد أنه تبرع لها ببعض من ماله، وكان عزوفه عن المشاركة فيها لأنه آمن بمبدأ آخر رأى فيه نهوض أمته، فقد كان يرى إصلاح التعليم خير أنواع الإصلاح، بل

هو خير من الاصلاح السياسي، بل كان يرى أن الاصلاح السياسي، إذا لم يرتكز على الاصلاح التعليمي فلا بقاء له ولا قيمة.

وكذلك نفس النظرة لدى الرائدة نبوية موسى، في عزوفها عن المشاركة في الثورة المصرية ١٩١٩م، لإيمانها الشديد بطريق التعليم ودوره في انتزاع حقوق الأمة وعلو شأنها وتحقيق حريتها، وليس ما فعله كامل كيلاني في معركة الهوية بغائب عن أذهاننا، حينما استطاع ان يطبع الناشئة على قصص الأسلاف وسط موجات التغريب التي تسحر الألباب.

ميادين الاصلاح والكفاح عديدة، ونحتاج في معاركنا لكل فارس وكل ميدان، لكن البلية أن يطعن بعضنا في جهد بعض، ونستقل بكل ميدان غير ميداننا، ونستهين بجهود أبطال لا نعلم كيف سيكون المآل والوضع، لو لم يقدموا ما قدموه.؟!

هكذا يجب أن نكون

عجيب والله هذا القلب حينما يخالف، فإنه يتنكر ويتوحش ويفجر.

فلا يعرف أدبا، ولا يذكر ودا، ولا يراعي بسمة كانت تخرج في يوم من الأيام، لمن يتنكر له اليوم ويختلف معه.!

كثير من الأشقاء والندماء والأصدقاء، كان يحب بعضهم بعضا، ويألف بعضهم بعضا، حتى جاء الخلاف في الرأي والتغاير في وجهات النظر، ليشق هذه المودة بسكينه الحامي، لقطع اللحمة الواحدة، فيصير بين الطرفين تباعد وانفصال.

يمكن أن تحدث بعض الجفوة، ويتحدث كل منهما في خاطره عن جهل صاحبه وقلة معرفته، وهناك من يحقد على أخيه لقلة معرفته وجهله ومكابرته، وهناك من يحقد لمجرد أنه خالفه وناصبه العداء في الرأي.!

وكلا الوجهتين أخلاق تعيسة فاسدة، لا يجب أن تنبت في النفس التي تنشد الرقي والخلق والعلو والتسامي.

للنظر دومًا إلى عنصر الإنسانية في أجسام من يخالفوننا، هذه الإنسانية التي تستدعينا أن نغفر ونعذر ونسامح، ونقيل العثرات، وننسى الزلات، حتى تبقى قواعد الحب غالبة متأصلة، مهما لفحتها عوارض الخلاف في الرأي والتغاير في الفهم.

عليك إذن أن تؤمن بهذا الأمر وتعتقد به وتتبناه وتطبقه وتحييه مع من يخالفونك حتى لو أتواب الكفر، فلابد أن تترك مساحة من حوار القلوب تمكنها أن تمهد بينك وبين مخالفك، لتعيشوا في سلام ووئام، أو لتوجد مساحة أخرى في ميادين أخرى للتفاهم والنقاش.

أدرك بشدة أن من يقفون في صفوف الباطل، هم من أظلم الله قلوبهم، وطبع عليها بالقتامة، فلا ترى شيئا من سبل الهداية والنور، أدرك جليًا أن هذه النوعية الجاهلة، التي مسخ الله عقولها لتكون أقل من عقول الحيوانات، يشمئز منها الإنسان ويبغض أصحابها، ويشعر باختناق عظيم، كلما ناقش أو حاور أحدهم.

لكن لابد أن تصبر، ولا يكون همك الانتصار للنفس، الذي تزعم في جوفك أنه انتصار للحق.. اصبر فهؤلاء بلاء حل بأرضك ووطنك وقومك، ولعل الله يهدي هذه العقول التي غلبتها خيوط الجهل، فإنهم في المقام الأول بشر يحملون معنى الإنسان، ذلك العنوان المقدس الذي لابد لك أن تحترمه لانتمائك إليه.

كان الشيخ رشيد رضا شديد الوطأة والانكار على مخالفيه من صوفية الجهل والبدع والخرافات، وكان له أستاذه حسين الجسر الذي كان صوفيًا وخليفة لوالده الشيخ محمد الجسر من صوفية الطريقة الخلوتية، لقد كان رشيد يعرف قدر علم شيخه، حتى أنه يقول عنه: لا أعرف له في الأزهر مثيلا في علمه وعمله وسيرته.

كان الشيخ ينصحه دوما بالعدول عن هذا الطريق الذي يهاجم فيه الصوفية، وكان ينكر على رشيد مقالاته في المنار التي يشتد فيها الهجوم، بل كان يرد عليه في الصحف ويفند مقالاته، حتى قال رشيد: وتجافينا.. حتى إذا زار القاهرة، كنت أزوره كل مساء، فأقبل يده وأجلس عنده ما جلس للناس، فلما كان يوم سفره خلونا ساعة، وسألته النصيحة، فأعاد علي إنكاره

ذاك، ومسائل أخرى أنكرتها على بعض ما في الكتب المألوفة، وقال لرشيد: إنني أحب لك ما أحب لنفسي، وأنت صاحب علم وحجة، وليس عندي لك غير ما قلته.

وأما هذا الموقف لابد لنا أن نقف عن بعض النقاط المهمة.

١- لقد حدثت الجفوة بين الشيخ وتلميذة أو بين رشيد ومعلمه الجسر، ولعلها بسبب البعد وقلة وسائل التواصل في هذا الوقت، وهي التي تتراكم على بعض معاني الاختلاف، فتحدث نوعا من الفتور تنشأ معه هذه الجفوة التي عبر عنها رشيد.

٢- حينما زار الشيخ الجسر مصر، سارع رشيد ليقبل يده ويجلس إليه ويكون في صحبته، وهو أدب عظيم، ودليل ضخم على التزام معاني الاسلام وصفاء الروح، الذي تحلى به رشيد تجاه من خالفه.

٣- مهما كان الخلاف والشقاق والتجافي، فلكل مقام مقامه، وهو الامر الذي لا يجهله المسلم أبدا، فالشيخ الجسر له قدره وله فضل أستاذيته وعلمه، وهي المعاني التي لا يجب أبدا أن نكفر بها مع من يخالفوننا، وتلك أزمة التيارات السلفية التي تُكفر وتفسق وتضلل كل من يخالفها الرأي ولو في اجتهاد فقهي، غير عابئين بمكانة الشيخ ولا قدره وخدمته للإسلام.

٤- لا ننسى أبدا سماحة الشيخ الجسر وروحه النقية الصافية، والذي يدرك أن خلاف التلميذ لأستاذه، عمل لا تحتمله النفس ولا تقبله طبيعة كثير من الشيوخ، لكنه تعالى على كل هذا، وأكد على علم التلميذ، ثم أكد على حبه له، بل تعالى بهذا الحب ليؤكد بأنه يماثل تماما ما يحبه لنفسه.

٥- وهكذا يجب أن يكون الطريق والسلوك والتصرف لكل من يختلفون مع بعضهم البعض في الآراء ووجهات النظر، لا أن يتعالى بعضهم على بعض، وينكر أحدهم على صاحبه، ويكفره ويفسقه كما تفعل غلمان السلفية، الذين غيروا ملامح التدين لصورة شوهاء لا تقبلها طبيعة المتسامحين.

السقوط من دنيا الشرف

تصيبني حيرة كبيرة وهم عظيم، بل صدمة تجثم على صدري، حينما أرى رجلا ظني فيه الشهامة والمروءة والتدين العظيم والاستقامة البالغة، ثم أراه إذا ما دلف إلى معركة مع ند ما، أو وُضع في حالة نزال مع نظير له، يفتري على خصمه الكذب، ويطلع عليه بالبهتان، ويؤلف في تشويهه قصة مكذوبة رجاء الانتصار والغلبة عليه.

وهنا تكون النازلة حينما يتبين لي هراء الظنون التي استحكمت على عقلي، وحينما يتكشف لي أنني كنت أعمى وجاهلا عن إدراك الحقيقة، في تقييم الناس على طبائعهم وأخلاقهم.

وأحب أن أقول ابتداء: إن الرجل الدين والمستقيم، بشر ككل البشر يمكن له الخطأ والزلل، وهذا حقيقي.. لكن الكذب والافتراء والبهتان، ليست من هذه الصفات التي يمكن أن أسامح فيها أو أغفر عليها، أو أستعيد ثقتي فيمن كنت أظنه على الخير قبل ارتكاب هذه الفرية.

يمكن لك أن تسب وتشتم وتتعارك وتتهم، وتخرج لسانك لخصمك كائدا له ومثيرا لحفيظته، لكن، أن تفتري وتكذب وتؤلف القصص الزائفة، حتى تحط من قدره، فهذا غير مقبول في دنيا الرجولة والشرف وعالم المروءة والشهامة.!

وقد تعرضت في حياتي لكثير من هذه المواقف، وكنت كثيرا ما أصاب بصدمات رهيبة، أقف ساعتها صامتا وجلا، وأنا أنظر لعين خصمي وهو يتهاوى من دنيا النبلاء، وكأني أقول له: كيف استطعت أن تفتري هذا الكذب، وكيف قبلته نفسك؟!

أذكر حينما كنت في صدر شبابي أعمل بالصحافة، كانت لنا زميلة تجلس كثيرا مع أحد الشباب، فبدأ بعضهم يأتي في سيرتها ويتحدث في علاقتها، فرأيت من واجبي أن أنبهها للأمر حتى تبتعد عن هذه الشبهة، وتُلجم الألسنة التي تنهش في عرضها، فناديت عليها وأنا في مدخل البناية، ولم يكن هناك أحد يرانا وذكرت لها القصة، ونصحتها في صوت منخفض يشبه في همسه دبيب النمل، ونهيتها عن الجلوس مع ذلك الشاب مرة أخرى حتى تسلم من القيل والقال، وكان الحوار في جو أخوي ليس له منشأ إلا الخوف عليها وصيانة سمعتها،

فاستجابت وشكرتني، ولم تمض ساعتان حتى فوجئت برئيس التحرير يطلبني فلما دخلت إليه وجدت الفتاة وصديقة لها، والرجل يقول لي: دول بيقولوا إنك أوقفت فلانة وقلت لها انت بينك وبين فلان علاقة مش كويسة، بطلي تمشي معاه، وقلت هذا بصوت عال أمام كل الناس حتى تسمع الجميع، ولا غاية لك إلا الفضح والتشهير، فكيف تفعل هذا؟!

دهشت جدًا مما قيل، وقلت مذهولا وأنا أضع يدي على صدري: أنا؟؟؟؟ والله لم يحدث، فإذا بصديقتها تقول: لا حصل وأنا شفت وسمعت.! كنت وقتها كالغارق لا أملك من وسائل الدفاع إلا اليمين الذي لا يصدقه أحد، ولكن لا أخفيك أني لم أكن أفكر في التهمة وكيفية الخلاص منها، بقدر ما كنت أفكر في هذه النفسية الفاجرة الآثمة، كيف استساغت أن تكذب وتفتري هذا الإفك والزيف والخيال الحرام.؟!

يمكن للمصاب أن يكون هينا على المستوى العام، فالناس ربما تُقصر ثقافتهم وتربيتهم عن تنمية ضمائرهم وإزكاء شرفهم، لكن المصيبة والكارثة تكون وتكمن في النخبة، حينما تجد زعيمًا أو مصلحًا كبيرا أو عالمًا ومفكرًا يفتري الكذب على خصومه، بُغية الإساءة إلى سمعتهم وصرف الناس عنهم، ففي الوقت الذي كتب فيه الأستاذ أنور الجندي عن شخصية (عبد العزيز جاويش) يمجد فيها تاريخ الرجل، ويبعث للأذهان جهاده وصدحه للحق في مواقفه التاريخية الخالدة، يأتي العقاد في كتابه عن سعد زغلول، ليؤكد أن جاويش من هؤلاء الذين امتطوا مراكب الزيف والافتراء، حينما كان يؤلف الأكاذيب على سعد زغلول.

كان الشيخ عبد العزيز جاويش، ينسى أحيانًا أدب الصحفي الشريف، ولا يبالي أن يفتري الأكاذيب وهو عالم بافترائها، حينما كان يزعم أن وزير المعارف سعد زغلول آلة في يد الإنجليز يسخرونه التسخير الأعمى بلا معارضة منه ولا سؤال، فقد بلغ من سخفه في تلفيق المزاعم، زعمه بأن دنلوب كان يكتب الخطب لسعد باللغة الانجليزية، وأنه هو جاويش كان يُندب مع غيرة لترجمتها إلى العربية، ثم يلقيها سعد باسمه وهو صاغر مغمض العينين، ولما تقصى العقاد سبب العداوة، والأساس الذي انطلقت منه هذه المفتريات، ذكر أن مدرسة القضاء الشرعي حينما أنشئت، كان جاويش وقتها مفتشًا بوزارة المعارف العمومية، وكان يطمع في

نظارتها، فأخلف سعد رجاءه وأسندها إلى غيره وهو عاطف بك بركات، فحنق جاويش على سعد وأسرها في نفسه، إلى أن تولى تحرير جريدة اللواء بعد موت مصطفى كامل، فخرج وهو لا يفكر في شيء غير التشهير بسعد والحملة عليه، وكان هذا الافتراء والكذب.

وهل العقاد نفسه على قدر ما رصد من زيف جاويش، هل تراه كان بمنأى عن هذا الافتراء؟!

ألا نتذكر كيف افترى على حسن البنا افتراء عظيما، فادعى أن أصوله يهودية، وهو ابن علم من أعلام السنة النابهين.!

المرأة والنبلاء

الفيلم الهندي زارا وفير الذي أنتج عام ٢٠٠٤م بطولة شاروخان وبيرتا زينتي، كان فيلما مؤثرًا، ورغم أنه فيلم رومانسي إلا أنه يحمل بعض القيم المهمة ويغصب عينيك في بعض مشاهده أن تزرف الدموع.

قصة الفيلم تقوم حول شاب قبضت عليه السلطات الباكستانية واتهمته بالتجسس لصالح الهند، وفي التحقيق رفض أن يدلي بأي شيء عن تفاصيل وجوده في باكستان حفاظا على شرف الفتاة التي أحبها أن يمسها أحدهم بسوء، أو أن تأتي سيرتها بما يفسد سمعتها أو تلوكها بعض الألسنة.

قبل الفتى العاشق أن يسجن ويحكم عليه بالسجن المؤبد وتهمة التجسس، فداء لمعشوقته التي أحبها من كل قلبه.

والفيلم في أحداثه خاصة النهاية، مبهر ومخدوم بعنصر الدهشة والغرابة التي تثير الوجدان والعاطفة، خاصة في موقفين متميزين وهما حينما اكتشفت المحامية أن زارا مقيمة في بيت حبيبها، وأنها رحلت إلى الهند لكي تكون بجوار الرجل الذي تجد معه سعادتها، والموقف الثاني حينما قدمت المحكمة الباكستانية اعتذارات للرجل الذي حافظ على سمعة وشرف فتاة باكستانية.

الموقف كان شهما ومثاليا وإنسانيا من الدرجة الأولى، ويعلم من يشاهد القصة، روعة هذا السامي الذي لا يرقى إليه ولا يجسده إلا شاب تجرع المروءة وتربى على المثالية والأخلاق العالية.

لست من هواة الأفلام، ولست ممن يكتبون مروحين للسينما الهندية، لكنني استمعت لهذا الفيلم قدرا في بعض أوقات الفراغ، خاصة ما أجده من الصراع بين الهند وباكستان، وقد دعاني للحديث عنه واستدعاء أحداثه، ما قرأته مؤخرًا من موقف مشابه لا أعرف مصدره أو مدى صحته، لزاهد عارف من زهاد سلفنا الصالح، وكان أعمق في موقفه وتصرفه وأحداثه وأخلاقه ومثاليته وروعته ومروءته، من موقف الفيلم الهندي.

يروى أن المطر تأخر نزوله حتى أوشكت الأرض على الجفاف، فهب المسلمون ليصلوا صلاة الاستسقاء في المسجد الحرام، وكان من بينهم العالم الزاهد عبدالله بن المبارك رحمه الله وانصرف المسلمون من المسجد بعد الصلاة ولم يكن في السماء سحابة واحدة تبشر بنزول المطر، وتأخر عبدالله في المسجد وبينما هو منصرف مع المنصرفين لمح غلاماً أسود يرتدي قطعتين من الخيش إئتزر بإحداهما ووضع الأخرىعلى كتفه، يقول ابن المبارك: فكأنما تعلقت به عيناي فلم أستطع أن أصرفهما عنه، فرأيته ينسل من بين صفوف الناس متجهاً نحو الكعبة، فتبعته دون أن أدري لماذا تبعته، وأخذت أطوف مع الطائفين خلفه.

وفجأة انتقل إلى أحد الأركان فأنتبذ له مكاناً خفياً، وأنا أرقبه دون أن يشعر بي ثم أخذ يرفع يديه داعياً الله، فسمعته يقول: إلهي.. ما كنت أدعوك لولا رقة غلبتني على عبادك هؤلاء، الذين خرجوا يستسقونك بألسنتهم وهم يحملون في قلوبهم ما من أجله منعت عنا غيث السماء، اللهم إن اغترارهم بحلمك ورجاءهم في رحمتك قد أنسياهم الخوف من غضبك وعذابك اللهم فأجعل هذا لهم لا عليهم يا واسع الرحمة، يا غنياً عن العالمين يإ إلهي إني ما دعوتك يوماً لنفسي إلا أستجبت لي فضلاً منك وكرماً ،وها أنذا أدعوك اليوم لعبادك هؤلاء من أمة نبيك وحبيبك، فإن لم تستجب لي خشيت على نفسي من الإغترار بأنك

اصطفيتني وحدي عبداً لك من دونهم أجمعين، إلهي ياحليماً ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل، إن كنت تحبني كما أحبك فأسقهم الساعة .. الساعة.

ولم يكد يردد الغلام كلمة الساعة، حتي تجلت السماء عليه بالغمام، وهطل المطر غزيراً مدرارا، ولم يستطع عبدالله بن المبارك العالم الورع الزاهد الذي تتحدث بعلمه وتقواه الألسنة، أن يملك دموعه آنذاك، فأخذ يبكي حتى استمع الغلام إلى بكائه ونحيبه، فألتفت وراءه فرآه، فلم يلبث أن انتفض مذعوراً كأن عقرباً لدغته، وانطلق يعدو مسرعاً حتي خرج من المسجد، وتبعه ابن المبارك من بعيد، حتي علم أنه غلام لتاجر كبير يدعى عبدالمولي المدني، وأن اسمه ميمون، فعرض عليه أن يشتريه، فأخبره التاجر أنه غلام صالح لا يصلي إلا في الكعبة، ولكنه ضعيف لا يصلح، ولا يقدر علي شيء، ولكنه فقط يتبرك به، فرد عليه ابن المبارك: لا بأس فأنا لا أريد منه خدمة، ولا منفعة، وأضاف التاجر يصارحه: وهو علي الرغم من صلاحه، إلا أنه عبد شهواني فيم يتعلق بالنساء، ولا يؤتمن على الحرمات، فلما بدت الدهشة على وجه ابن المبارك، قال له التاجر: إن شئت دعوت لك الجارية السوداء زيتونة، التي دأب على مراودتها عن نفسها حتى شكته إلي.

وأنتابت الدهشة ابن المبارك، وصمم على معرفة تفاصيل قصة هذا الغلام ميمون، إذ كيف يكون ذلك وقد رأى بعينيه وسمع بأذنيه ما لميمون من كرامة عند ربه، فقد استجاب الله عز وجل لدعائه في الكعبة في التو واللحظة، ولم يصدق ابن المبارك هذا الكلام عن الغلام، وأعتقد أن في الأمر شيئاً، وصمم على شراء الغلام بعشرين ديناراً كما طلب صاحبه، وفي الطريق سأله: ميمون عندما رأى فرحته بشرائه: سيدي.. ما حملك علي شرائي وأنا ضعيف البدن كما ترى لا أطيق الخدمة وقد كان لك في غيري سعة؟

فأجابه ابن المبارك: بل أنت أخي يا ميمون وأنا لن أستخدمك وسأشتري لك منزلا وأزوجك وأخدمك أنا بنفسي، فبكي ميمون قائلا: لا حول ولا قوة إلا بالله وظل يرددها قائلا: لم تفعل هذا إلا وقد عرفت سري، فأخبرني بالله عليك ماذا عرفت عني؟ فرد ابن

المبارك عرفت أنك مجاب الدعاء، فسأله ميمون هل سمعت دعائي أمس في المسجد الحرام؟ فرد ابن المبارك نعم.

و طلب ابن المبارك منه أن يخبره عن الطريق الذي سلكه إلي الله، لكي يصل إلى ما وصل إليه من كرامة، فقال ميمون: غادرت البصرة دون أن يعلم أبي أو أحد من أهلي وحللت مكة، فأتفقت مع رجل من أهلها فزعم أني عبده وباعني للتاجر الذي إشتريتني منه، وأندهش ابن المبارك وسأله: لماذا فعلت ذلك؟ فأجاب: لأقهر نفسي وأذيقها المذلة والهوان، ولكي لا أعبأ بالدنيا وأكون من الثلاثة الذين يدخلون الجنة أول الناس كما جاء في الحديث الشريف وهم: الشهيد وعبد مملوك لم تشغله الدنيا عن طاعة ربه، وفقير ذو عيال ويكمل ميمون: ولما سمعت هذا الحديث، وأنا في البصرة قلت: لأكون أنا العبد المملوك الذي لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، ولما سأله ابن المبارك عن مراودته الجارية السوداء أجاب ميمون: كانت محنتي هذه هي مفتاح الصلة بيني وبين الله عز وجل، فقد ذلل لي بعدها كل صعب، وأنكشف لي بعدها كل حجاب، فقد كنت أنا وميمونة وحدنا في حجرتها في نصف الليل والجميع نيام، وراودتني عن نفسها فقلت لها: إنني أخشى الحي الذي لا ينام استري نفسك، يا زيتونة، وأعلمي أني لن آتي الحرام أبدا ولو قطعتني قطعا، فهددتني وأقسمت إن لم أستجب لها لتقولن لسيدها إنني قد راودتها عن نفسها فقلت لها: افعلي ما شئت ففعلت، فأندهش ابن المبارك وسأله: ولكن لماذا اعترفت على نفسك ولم تكذب الجارية؟ فرد ميمون: أردت أن أصون سمعتها وعرضها عسى أن تهتدي في النهاية إلى طريق الله فسأله ابن المبارك: أتصون سمعتها وتلوث سمعتك؟ فأجابه ميمون: أردت بذلك وجه الله تعالى الستير جل وعلا، فكان ذلك مفتاح القرب منه والوصول إليه.

العاهرة!

ما هي إلا لحظات تسعد بها وتبتهج لها، وتظن ساعتها أنك ملكت الدنيا ونلت منها غرضك، وصرت ممن يشار إليهم بالبنان، لكنك في الحقيقة موهوم، فالذين مدحوك وصفقوا لك، لا

يعدو ذكرهم في هذا الكون إلا كحجم الذرة التي لا ترى ولا يعلم بها الا من يتملك مجهرًا دقيقا.

الشهرة ليست داء فحسب، بل هي إدمان يصعب الشفاء منه لو دخلت إلى عالمه، إدمان يغيب الكثيرين عن الواقع الحقيقي، فيسيرون معه وكأنهم مسحورين، وهل يَعقل الكاتب اليوم أنه لن يكون مشهورًا، مهما بذل ومهما تعب ومهما كتب، حتى يريح نفسه ويلجم هواه وطموحه، نعم لن تكون مشهورا، حتى ولو كانت كلماتك سلسالا من الذهب، أرح نفسك من التعب والعناء إن كنت تكتب للشهرة وذياع الصيت، أما إن كنت تكتب للمتعة وحبك للقلم، وإحساسك بضرورة إخراج ما في صدرك على الورق، فعليك أن تواصل طريقك، فأنت سليم غير مريض، ولم يعمل فيك داء الشهرة عمله، أو يضرك بشططه بعد.

أحيانا كثرة أسأل نفسي فيها فأقول: العالم الفلاني والأديب العلاني، كتبوا وصنفوا أسفارا رائقة فائقة، ومع ذلك لا يعرفهم أحد، ولم يقرأ لهم أحد، لقد ضاعوا واندثروا وانطفأ ذكرهم ووجودهم في أمة لا تقدس الكتاب ولا تهوى القراءة، فأين أنت منهم ومن مواهبهم التي لا تمتلك ربعها أو نصفها أو ثُمنها؟ ما أنت أمامهم إلا هراء أو غثاء، إنهم رغم إمكاناتهم لم ينالوا الشهرة التي نالها البعض، ولم يتردد اسمهم إلا قليلا.

تعود بي الذاكرة للوراء، وأتساءل أين الوزراء والمحافظين والمسؤولين والقادة الذين كانوا في العهود السابقة ملء السمع والبصر؟ والذين كانت تطل بهم شاشات التلفاز ليل نهار؟ هل يذكرهم الجيل الجديد أو يعرف من أسمائهم أحدا؟ لقد اندثروا وراحوا وتبخروا!!

لا تحسبن أن الشهرة للكاتب أمر عسير، إذ يمكن بكل سهولة أن أكون مشهورا، لكن ذلك قد يصاحبه تنازل كبير في أخلاقي وديني وضميري، يمكن تحقيق ذلك بسرعة البرق، ولن يكون هناك عناء أو جهاد، فما هي إلا أن أُطل من صحيفة أو وسيلة إعلامية، وأطعن في التراث والرموز والقيم الاسلامية، لأرى بعدها الدنيا تفتح ذراعها لي، والصحف تطنطن صفحاتها باسمي، والاذاعات والفضائيات تدعوني وتستضيفني لأكيل للحق وأهله، وهؤلاء تماما يشبهون هذا الأعرابي الجريء القبيح، ينسب إلى ابن الجوزي رواية خبره في

المنتظم فيقول: "بينما الحجاج يطوفون بالكعبة ويغرفون الماء من بئر زمزم، إذ قام أعرابي فحسر عن ثوبه، ثم بال في البئر والناس ينظرون، فما كان منهم إلا أن انهالوا عليه بالضرب حتى كاد أن يموت، فخلصه حراس الحرم منهم وجاؤوا به إلى أمير مكة فقال له: قبحك الله، لم فعلت هذا؟ فقال: حتى يعرفني الناس فيقولون هذا الذي بال في بئر زمزم". هذه الرواية نقلها المئات من المعاصرين في السنوات الأخيرة، وهناك رواية أخرى مشابهة للسابقة نقلها العشرات، وينسبونها إلى كتاب "أخبار الحمقى والمغفلين" لابن الجوزي، وتختلف في أن الأعرابي أجاب بقوله: "أردت أن أذكر ولو باللعنات"[١]

لقد كان المتصوفة قديما يعتبرون الشهرة مرضًا من أمراض النفس، وبلاء معديًا يفرون منه، ويتجنبون أسبابه، لكن فتية اليوم يختلفون في أخلاقهم عن أخلاق الصوفية وسلوكياتهم، وبعضهم لو بثثنا في روعه هذه الخواطر ليأس وانحدر وقنط وعزف عن الكتابة والقلم، ومن أجل هذا كانت دعوتي لتغيير المسار والغاية، فتكون الكتابة لهدفها العظيم والسامي، حينما تخدم قيمة أو تدعم رسالة، أن تكون الكتابة وسيلة من وسائل الرقي لصاحبها حينما يصوغ من مشاعرة وخواطره أحاسيسًا يستمتع هو بها قبل أن تُعجب غيره، ربما يكون حولك عشرة أو عشرين من القراء والمعجبين والمهتمين، فليكن عملك لهم وغايتك فيهم، وليكونوا فقط هم الدنيا في نظرك والشهرة في أملك، فيوم أن يقرأ صديق واحد ما أكتب ويناقشني فيه، أو يصحح لي خطأ، فإنني أكون وقتها أسعد الناس، لأنني استطعت أن أوجد هذا الجو وهذا المناخ الذي تهيم فيه نفسي ويألفه قلبي، وأشعر فيها بمكاني وعطائي وكياني، وإن لم يكن للكتابة سوى هذا الغرض، فقد حققت للإنسان نفعا عظيما، أما أن تكون الشهرة غرضًا، فأرح نفسك منها فأنت في زمن لا يقيم للقلم قيمة، أو بمعنى أدق في بلاد لا تحترم قيمة القلم. هل تعلم أن الذين يؤلفون رواية أو روايتين، يبتلون بهذا البلاء ويظنون أنهم سائرون في ركاب الشهرة، ولا يعلمون أنهم موهومون، ولذلك نرى أنهم أحوج الناس لتعلم هذا الدرس، والوقوف على بلاء الشهرة ومقلبها الكبير، هم في حاجة ماسة لمن يذكرهم هذا الغرض القيم

---

[١] – يذكر بعضهم أن هذه القصة لا أصل لها ولم يذكرها ابن الجوزي في كتبه

الذي يكتبون له، تعجبت من إحداهن يومًا وهي تبث لي قنوطها وتذمرها من أنها لا تجد من يقرأ لها أو يتفاعل معها، فكان لابد أن أقف بها على الغرض الكبير للكتابة، هل تكتب للكتابة، أم تكتب لتحقق نقاط الاعجاب والشهرة؟ كان لابد من إيقافها على الرسالة والقيمة التي ينشدها الكاتب من قلمه، كان لابد أقف بها على القناعة التامة بمن يقرأ لها ولو كان فردا أو فردين، فإنها ساعتها تكون قد حققت رسالتها وغايتها من قلمها.

أقول دومًا بأن الشهرة السوية رزق يسوقه الله لصاحبه، فحينما تكون مشهورًا يؤدي ذلك لانتشار أفكارك وآرائك وأطروحاتك التي تدعم الخلق والفضيلة، وفي نفس الوقت، تكون لعنة وبلاء لصاحبها، حينما تكون سببا في انتشار أفكاره الضالة المنحرفة، التي تزيد رصيده من الزور والسيئات التي تدينه عند الله، لكنها مهما كانت تستحق منا أن نتعوذ بالله تعالى منها ليل نهار، ليجنبنا شرورها، ويمحو من دواخلنا لهفتنا لها، وقد شبهها أحد الكتاب بالعاهرة، وأراه تشبيها صائبا لأن لها غواية كتلك التي يمتلكها العاهرات.

الطيب صالح كان ممن سلكوا سلوكا معيبا لتحقيق الشهرة عبر أدب الجنس وروايته الشهيرة التي كانت ترزح سطورها بدعارة منقطعة النظير، كان من هؤلاء الذين يعلمون وهم الشهرة، ولكن من منظور مادي مختلف، حينما فاز بجائزة أدبية وراح يزور خالته في قريتها والتي سألته عن عمله بالتحديد، وكيف يكسب قوته؟ لأنها ترى أن العمل الناجح من الذي يحقق لصاحبه مكاسب مادية كأن يكون طبيبًا أو مهندسًا!

المفكرون والعلماء لاشك بحاجة لمزيد من الشهرة، حتى يدعمون مسيرة الاصلاح، ولكن المأساة حينما تغير مناط القدوة واتجاهه في بلادنا، فقديما كان الشباب يتوقون أن يكونوا مثل العقاد وطه حسين، ويتخذون من هؤلاء الاعلام قدوة لهم، لكن الرغبة تغيرت لتحل محلها هوامل الناس وسواقط المهن من الراقصين والممثلين، كان الكاتب والمحلل السياسي إلياس سحاب يكتب المقالات في الصحف اللبنانية، لمدة أربعين عاما، فلما عاد أخوه من دراسته للموسيقى في موسكو، وقدم حفلة موسيقية واحدة في بيروت وأذيعت في التليفزيون، كان الناس كلما قابلوا إلياسًا يسألونه: هل أنت شقيق سليم سحاب؟

الاعتراف بالحب

كثير منا إذا أحب أحدًا من الناس، فإنه يكتم عنه هذا الحب ولا يخبره به، ولا يحاول إعلانه، أو بمعنى آخر، يتكبر أو يخجل أو يُحرج من إظهار هذه المشاعر.. ولا يرضى أن يعرف بها أحد، لتظل مدفونة موؤودة لا سبيل لها أن تخرج إلى النور..

وهي علة نفسية قديمة وموجودة في كثير من النفوس، وليس معنى أنها موجودة أن نستسلم لها ونتعايش مع خطئها، ونقر كبتها، وإنما لابد أن نجاهد أنفسنا لنزيل منها هذا الحرج وهذا الخجل، الذي يمنع شجرة الحب أن تورق وتثمر في حياة الناس.

التعبير عن المشاعر أمر ضروري لتوثيق صور وأشكال المودة بين الناس، والصمت عنه وتجاهله والتغافل عنه ضرر كبير يسوق الحياة إلى الضمور واليبس.

يقول باولو كويلو: " نستطيع الاعتراف بكل شيء إلا ثلاث: الحب والضيق والغيرة، فنحن في تلك الحالات نجيد الصمت لا أكثر."

ويقول هاروكي موراكامي: "قد لا يفيد الاعتراف في شيء، فقط قد يجعلنا تعساء!"

وأقول أنا: كثيرًا ما نُجهد أنفسنا في إثبات الحب، فهل أتعبناها يومًا في مجرد الاعتراف به، لعل الاعتراف يغنينا عن كثير من عناء الاثبات!

هناك بعض الناس ينظر لكلمة الحب، ويرى الاعتراف بها نوعا من الضعف والهزيمة، فيقابلها بالاستكبار والتعالي، وبعضهم يتعامل معها تعاملا ماديًا فيخشى لو أنه أخبر أحدًا يحبه بما في قلبه فيستغل فيه هذا الحب في مال أو مصالح أو منافع.

أعرف بعض الأسر تسخر من هذا التصور، ويسودها عادات قبيحة تهزأ من إزكاء المشاعر وتنمية جذور المودة، ويوجد في قلوب أفرادها حياء من هذا الاعتراف وعملية البوح به، وكأنه اعتراف عشيق لعشيقته، وليس تقديرًا من رجل لرجل.!

بل من الغرابة أن تجد بعضهم يستسهل أن يعترف لامرأة بحبه لها، ولا يستطيع الاعتراف لرجل بأنه يحبه، لقد ظلمنا كلمة الحب كثيرا حينما ربطنا بينها وبين العيب والحرام والضعف والدعة.

أنا عن نفسي كواحد من الناس، أحاول أن أتذكر اعترافاتي لأصدقائي الذين أحبهم، فلا أجد شيئًا منها، تسرقنا المادة وتلهينا الحياة، وتغفل عقولنا عن هذه اللمسات الغالية، والشهادات العزيزة، التي نوثق بها صحائف الود بأختام الحب.

لقد لفت نبينا الكريم إلى هذا الجمود العاطفي وأزال صفائح صُلبه حينما أمر المسلمين بقوله: "إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره أنه يحبه"[1]

وقال: من كان في قلبه مودة لأخيه ثم لم يُطلعه عليها فقد خانه.

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ: أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر رجل به فقال: يا رسول الله، إني لأحب هذا، فقال له النبي ﷺ: أأعلمتَه؟ قال: لا، قال: أعلِمْه، فلحقه فقال: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الله الذي أحببتني له"[2]

قال المناوي في فتح القدير:

"فليخبره بمحبته له ندبا، بأن يقول له إني أحبك لله. أي: لا لغيره من إحسان أو غيره، فإنه أبقى للألفة، وأثبت للمودة، وبه يتزايد الحب ويتضاعف، وتجتمع الكلمة، وينتظم الشمل بين المسلمين، وتزول المفاسد والضغائن. وهذا من محاسن الشريعة"

بل طبقه النبي ﷺ عمليا مع أصحابه حينما أَخَذَ بِيَدِ معاذ وَقالَ له: "يَا مُعَاذُ واللهَّ إِنِّي لأُحِبُّكَ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعاذُ لاَ تَدَعنَّ في دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُم أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ، وحُسنِ عِبَادتِك."[3]

---

[1] – رواه أبو داود والترمذي

[2] – رواه أبو داود

[3] – حديث صحيح

وقد يقول بعضهم: لا داعي لحرج الاعتراف، ولكن يمكن أن تكون هناك أفعال وتصرفات ومواقف تدلل على ذلك، وأمام هذا أقول: إننا إذا دخلنا حيز الممكن، فمن الممكن كذلك ألا يتنبه من نحبه لصدق مشاعرنا، كما يظهره له الاعتراف به، والمصارحة بحقيقته.

أعلم يقينا أن عنوان المقال قد يجر الكثيرين حينما يظنون أنني أقصد اعتراف الرجل للمرأة بالحب، لكني لا أقصد ذلك، وهو أيضا من دلائل انتفاء هذه العادة من حياتنا، فحينما تذكر كلمة حب، لا تذهب إلا لذلك الحب بين الرجل والمرأة.. لقد ضيقنا بابه وهو واسع عظيم.

من أجل المعركة يهون كل شيء

نعيش في زمن عجيب يشوبنا فيه الضعف والخور والضياع والتمزق، وبدلا من أن نلملم أنفسنا، ونجبر كسورنا، ونداوي جراحنا، ونسدد نقصنا، ظهرت فينا فئات من العقول المنكرة، يملكها شباب لا يحترفون في حياتهم إلا تمزيق أمتهم، وتشتيت جموعها وإبراز هناتها، وإظهار معايبها وتضخيم صغائرها، وهدم رموزها، والحفاوة بكل نقيصة من شأنها أن تُهين تاريخنا ومكانتنا.

ففي الوقت الذي تُواجه فيه أمتنا وتراثها وهويتها حرب وجود، يخرج هؤلاء السذج بعقولهم القاصرة، ليكونوا وقودًا للتغريب في تحقيق أهدافه، أتعجب لفتى من الفتيان، لا هم له صباح مساء، ولا رسالة له في الحياة، ولا أمل يرجوه من الوجود، إلا أن يسخر كل قواه، ليبث للدنيا كلها ضلال الإمام محمد عبده وسيده جمال الدين الأفغاني، ويحاول جاهدًا أن يصدق فيهما كلام المرجفين، ويتأول عليهما مالم يكن من حياتها ولا سلوكهما، وهما من أعاظم الدنيا كفاحا وإصلاحا وجهادًا في سبيل خلاص أمتنا، يشهد بهذا تراثهم ومقالاتهم وكتبهم التي لا يستقبلها، ويعرض عنها حتى لا تفسد غرضه الذي يباركه هواه.

إننا في معركة الهوية نحتاج لكل جندي، ونحتاج لكل مكرمة ومفخرة، نقف بها أمام عدونا الذي يتهمنا بالنقص، وينسب لنا المعايب، حتى وإن كان في تاريخ رجل من رجالنا ما يعيب، فلماذا لا نستره ونطويه ونجهد تركيزنا ونوجه بصرنا وبصائرنا، نحو الساطع المنير من حياته وإنجازاته، وهكذا يفعل الغرب، إذا علم من سوءات زعيم من زعمائهم، فإنهم لا ينتبهون

إليه، وإن انتبهوا، فإنهم لا يتجرؤون أبدا أن يسقطوا ألمعيته، أو يحاولون إلغاءه من الوجود كما يفعل بعض سفهائنا.

من قديم ذكرت أن ابن سينا معلوم جرمه الفلسفي والفكري، وكذلك جرمه العقدي حين كان على عقيدة الباطنية الحشاشين، لكن نجاحه العلمي كان إضافة غالية لأمتنا، يضعها على طريق التميز حين انتسب لها هذا العبقري، ليكن حسابه وكفره وإيمانه عند ربه سبحانه، لكن ليس من الفطنة أن نخسر مثله كرائعة من روائعنا ونابغة يحسدنا عليه العالم، بل ذكرت الجاحظ المعتزلي الذي حكم بضلاله كثير من أهل السنة، ولكن قلي: أي أمه من الأمم لها تراث أدبي مثل ما خلف فينا الجاحظ من كتبه وآدابه؟!

إن غايتي وفهي ومقصدي يمثلها تمام ما قاله أمير الشعراء في أندلسياته:

فإن يك الجنس يابن الطلحاء فرقنا ** فإن المصائب يجمعن المصابينا

بهذا الفقه وبهذا الفهم، تحرك كثير من عقلائنا وفقهائنا، فكان فهمهم وعقولهم، تضمن توحيد البنيان، وتجميع القوى، والاصطفاف القوي في وجه الغادرين، في مذكرات الأستاذ (محمد كرد علي) مواقف كثيرة في الوعي والتربية، وكان مما واجه في حياته رجلا أديبًا عالمًا كاتبًا، لكنه كان شتاما هجاء يعز وجود مثله في السفهاء الهجائين، كان الرجل يحفظ من معاجم الشتم كل قبيح مقذع، وكان يدمن أساليب التشفي والتشهير، وكانت له صحيفة يسخر كل إمكاناتها للهجوم على كتابات محمد كرد علي ومن معه، كما كان يشي بهم وشايات لئيمة عظيمة للحكومة، ولكن صاحبنا كان يعرض عنه ولا يجيب سبابه، لأنه يؤمن أن الشتم سلاح العاجز الحمق، ومضت الأيام وخفق بعض نجمه، وانزوت صحيفته، وصادفه يوما في أحد شوارع الأستانة، فاقترب من كرد علي يخفض له جناح الذل، ويحاول التودد والتقرب له، هاشا باشا طالبًا عفوه وسماحه.

يقول محمد كرد علي:

" ودارت الأيام وأتيت بهذا الرجل إلى عمل يرفع منه وأحسنت عشرته فقال لي أحد رصفائي متعجبا: كأنك نسيت ما كتبه فيك؟! قلت لعمري ما نسيت، وما عاملته بما عاملته به إلا

مكافأة له على عنايته بالأدب العربي في العهد التركي! وهناك سر لا يعرفه إلا الخلص من الأصدقاء، وهو أني كنت أُكثر السواد بمثل هذا النوع، على تخالف بيننا في العقل والروح، وما زلت مع صاحبي هذا حتى فرق بيننا الموت، وقد أبنته يوم مات، وذكرت مزاياه الحسنة، وأغضيت عن غيرها، وما خسرت شيئا"

الله الله على هذه العقلية، وهذا النص الذهبي، فالرجل يقبل عدوا من أشر الأعداء، ويخالط من لا يتقبله روحًا ولا عقلا، من أجل الانتصار للأدب والتراث، يُكثر به السواد، ويباركه على عمله، حتى يكون جنديا من جنود المعركة التي تتطلب كل الجهود، حتى ولو كانوا ممن لا نتقبلهم ونختلف معهم.

ولنا أن نسائل أنفسنا: أين هذا الفقه من أناس لو قدر لهم أن يقتلوا من يختلف معهم في الفكر والرأي لقتلوه، فلا يهمهم معركة ولا أمة ولا تراث ولا هوية ولا حضارة، وإنما المهم أن ينتصروا لأنفسهم، ويخففوا عنها آلام حقدهم وعقدهم وأنين أمراضهم.؟!

دستور أخلاق العلماء

إن حبي للتراجم وولعي بها، ساقني لتعقب مصنفاتها وكل ما سطره العلماء والدعاة والأدباء والمفكرون والعباقرة والموهوبون، عن حياتهم الشخصية، وسيرتهم الذاتية، مسلمين وغير مسلمين، قريبين وبعيدين، عرب وأجانب، سلف وخلف.

حتى اهتديت مؤخرًا لكتاب (لطائف المنن والأخلاق) لشيخ الإسلام وإمام الزمان سيدي (عبد الوهاب الشعراني)، والذي كان ترجمة لحياته ورصدًا لأخلاقه وصفاته، وشرحًا وافيًا ومبينا لحاله، وتعريفا بنعمة الله ومنته عليه.!

وقد عمد الرجل في تأليفه لهذا المصنف إلى جملة أهداف، كان أهمها أن يقتدي من معه بخُلُقه وصفاته، فقد قال:(ليقتدي بي إخواني فيها، فيتخلقوا بها) ولكني في الحقيقة حينما طالعت السيرة، وما ذكره من حاله، لم أجده في نظري وعقلي من كتب الترجمة والسيرة الذاتية والتعريف بالكاتب، بقدر ما وجدته دستورًا ومنهجا للعلماء والدعاة والعارفين وسالكي

درب الحقيقة والشريعة، يبين لهم الصورة المثلى والخلق الأسمى الذي يكونون عليه ويظهرون به ويتخلقون بسجاياه.

وإنك لتعلم جليا أن أسوأ ما يضر العالم تعلق قلبه بالدنيا، وطمعه في غرورها، وسعيه إلى مناصبها والجري وراء مفاتنها، وهي أحوال تتنافى مع مقام العلم وخلق العلماء، يمكن لك كعالم أن تكون غنيًا ويرزقك الله من مباهج الدنيا، لكنك لم تسع إليها ولم تدخل قلبك، ولا يضر هنا مثول الغنى والمال بين يديك، ما دام قلبك عامرًا بالقناعة مليئا بالرضا محصنا بغنى النفس.

كتاب عظيم النفع تقف أمام كل كلمة فيه، وتتأمل كل جملة كتبت في سطوره، فلا أخفي عليك أن أخلاق الرجل بهرتني وسجاياه أعجبتني، فقد كانت حياته وما كان عليه فيها من جميل الأخلاق، حياة تشبه حياة الأنبياء، ولم لا وهو وريثهم؟؟ فالعلماء ورثة الانبياء، لكن أكثر ما شد انتباهي في أخلاق الامام الشعراني، من كريم أخلاقه وجميل مزاياه، هو صفة القناعة الشديدة، والإباء الظاهر، والعفة التي تحلت بها نفسه، ولعلها أكثر وأبرز ما جذب اهتمامي ولفت نظري، لكثرة ما نرى حولنا من علماء أدنياء رخيصوا النفس، ضئيلوا الكرامة، يبيعون دينهم بدنياه.

لقد ذكر الامام الجليل كثيرًا من شمم نفسه ومناقبها في سطور متفرقة، وفصول متباينة، حتى لا تظن أنها كانت مجمعة او مفصلة، فقد أجهدت نفسي في ترتيبها والتنقيب عنها، والبحث عن شواهدها، وقد رأيت من الخير العميم أن أجمعها للقارئ هنا، حتى تكون في المقام الأول، رسالة لطلاب الأخلاق من علماء الزمان، الذين أهانوا علمهم حينما جعلوه طريقا لنيل الدنيا وطلب المناصب، والسعي بلعابهم خلف غرورها الفاني، حتى أضاعوا هيبة العلم، ورخصوا عرين العلماء، وأفسدوا على الناس دينهم، وأحنوا للباطل هاماتهم وعمائمهم، بل رسالة وكل مسلم سالكا درب الاستقامة، وطريق الفلاح.

انظر ما كتب الشعراني وحدثنا به عن نفسه:

-ثم بلوغي مقام الزهد، إلى أن صار عندي الذهب والتراب على حد سواء من غير ترجيح، ثم ذكرت أني بلغت مقام الزهد إلى أنه لو أمطرت السماء ذهبًا وصار الناس ينتهبونه، لم أجد لي داعية إلى أخذ شيء منه إلا لأمر مشروع.

- ولو أنني مررت على تلال الذهب والفضة، من غير مزاحم عليها من أبناء الدنيا، ولا حساب عليها في العقبى، لم أتناول منها دينارا واحدا إلا لضرورة شرعية، ولو أن البغلة دخلت داري في الليل محملة ذهبًا ونحوه، أخرجتها من داري بذهبها، خوفًا من طول الحساب يوم القيامة، ثم إنه لو كان عندي ما شاء الله من الذهب، فسرقه إنسان أو أخذه من بين يدي وأنا أنظره لا أتبعه ولا بوكيلي هوانا بالدنيا.

- ثم كراهيتي للأكل من شيء أُعطيته من الناس على أني من الصوفية، لأنه أكل بالدين.

- ثم فرحي بالفقر إذا أقبل.!

- ثم عدم طلبي لشيء من مناصب الدنيا منذ وعيت على نفسي.

- ثم عدم شهوة نفسي لشيء من المطاعم والملابس إذا دخلت سوق الطعام واللباس.

- ثم ردي كل شيء يأتيني من الولاة، وإن قبلته رميته بين الحاضرين ولا آخذ منه شيئا.

- ثم عدم خوفي من أحد من الولاة، لأنهم لا يُسَلطون إلا على من يحب الدنيا غالبا.

- ثم كراهتي للأكل من الصدقات الخاصة دون العامة، كالأوقاف على فقراء المسلمين.

- ثم إلهامي إلى أني أطلب الحوائج من أبوابها دون غيرها، ثم قضاء الحوائج من الحكام مع عدم الوقوف فيما ينقص ديني بسبب ذلك، من تزكية نفسي على ألسنة الوسائط أو غيرها.

- ثم عدم طلبي للثواب على شيء من أعمالي إلا من باب الفضل والمنة دون الاستحقاق.

- ثم عدم طلب نفسي مقامًا عند الخلق دون الله سبحانه وتعالى.

- وعدم احتياجي لقبولي مرتبًا من بيت مال المسلمين أو مسموحًا، ولو سألوني في ذلك، ثم حمايتي من الأكل من هدايا الظلمة وأعوانهم.

- ثم إنصافي لكل من عاملني في بيع أو شراء، وإذا استأجر مني شخص دولابا أو رزقة أو مركبًا ولم ينتفع بها، لا آخذ منه أجرة، ولو سألني هو فيها رددتها عليه.

- ثم حمايتي من الأكل من طعام من شفعت عنده أو شفعت له، أو قبولي هدية من أحدهما.

- ثم عدم بخلي بشيء دخل في يدي من الدنيا على من يستحقه سواء النقود وغيرها.

- ثم كراهتي للأكل في ضيافة الأوقاف التي تحت نظري أو نظر غيري، وعدم استقرارها في جوفي إذا أكلت منها ولو سهوًا.

- نعمة كراهتي للأكل من صدقة أو هدية علمت أن في بلد المتصدق أو المُهدي من هو أحوج إلى ذلك مني.

- ثم عدم قبولي شيئًا أعطاه لي الناظر من وقف المرتب.

- ثم عدم التفات نفسي إلى شيء من الدنيا إذا ضاع مني، سواء قل أو كثر إلا أن يكون لغيري.

- ثم عدم مزاحمتي لشيء فيه رياسة دنيوية أو يؤول إلى الدنيا من جاه أو نشر أو صيت.

- ثم عدم ترددي إلى بيوت الحكام لغير ضرورة شرعية.

- ثم عدم تكدري على شيء فاتني من الدنيا أو ممن صدها عني، ثم انشراح صدري إذا أصبحت وأمسيت وليس عندي شيء من الدنيا.

- ثم عدم أكلي من طعام من يعتقد في الصلاح خوفا من الأكل بديني.

- ثم كراهتي لقبول شيء من هدايا العمال والولاة، وعدم مزاحمتي على صحبة أحد من الولاة.

وأكتفي هنا بهذا القدر من قناعة الإمام الشعراني وإباء نفسه وعزة ذاته، ولو قلبنا في صفحات الكتاب، لوجدنا كثيرًا من الشواهد التي تدعم ذلك وتؤيده، لتكون قدوة لكل السالكين والملتزمين والمتخلقين بأخلاق النبلاء والأصفياء.

حينما نهرف بما لا نعرف!

هناك بعض الناس يروق لهم أن يتكلموا لغاية الكلام وحده.

المهم أن يكون لهم صوت، حتى ولو كان بالباطل والهراء.

وأحيانًا يدفعهم الهوى رغبة في تمجيد شخص ما أو إهانة غيره، فيهرفون بما لا يعرفون أو يتثبتون أو يتأكدون.!

وكثيرون ممن يسمعون عن قضايا تشغل الرأي العام، وهم لا يعلمون منها أو عنها شيئا، فتدفعهم الموجة أن يتكلموا فيها كما يتكلم غيرهم، فإذا بهم يرددون ما سمعوه فقط من إعلامي مؤيد، أو متحدث متضامن، بينما لم يتبينوا حقيقة الأمر ويسبروا غور القضية، حتى يتكلموا عن بينة.

وأكثر من هذا ما تراه من بعض الكتب التي تفجر قضايا ثقافية، فترى البعض لا يعرف شيئا عن موضوع الكتاب، ولم يقرأ منه صفحة واحدة، ولكنه فقط يردد ما تبادر إلى سمعه، ومن ثم.. يكون في حكمه كثير من اللغط، لأنه رأي وحكم لم يخرج عن قناعة شخصية وإنما هو مجرد ترديد لرأي المخالفين المعاكسين.

إن مما يحسب للغربيين أنهم إذا سمعوا عن شيء، فإنهم لا يقتنعون بما يسمعون، بل ينطلقون ذاتيا نحو المكتبات وطرق البحث في الإنترنت وغيره، حتى يتثبتوا ويقفوا على حقيقة الأمور، وهذا ما يحدث كثيرًا مع الإسلام، حينما تثار حوله شبهة في الغرب، أو يتعرض لهجوم يلفت أنظار الناس، فتنطلق ردود أفعالهم نحو البحث، لتتعرف عليه أكثر ويكون سببًا في هدايتهم له.

محزن جدًا أن تتصدر لنقد شيء والافتاء فيه، وأنت لم تحط به خبرًا، ولعلي لا أتجاوز حينما أعد مثل هذا العمل نوعًا من النصب والاحتيال أو خيانة الأمانة.!

إن الجهل بالشيء الذي نخوض فيه قد يصيرنا ظالمين مخطئين متجنين، لكنه في أحيان أخرى يصيرنا حمقى جاهلين مغفلين ساذجين.! تمامًا كما حدث لنا نحن المصريين حينما احتفلنا بأحد المستشرقين الذين جاءوا في زيارة للقاهرة، فأسرعت الدوائر الرسمية تُقيم حفاوتها واحتفالها بالرجل، وطنطنت الصحف وأسهبت في تعداد مآثره، وما ألف من كتب وما نشر من موسوعات، وأقيمت في إحدى دور العلم الكبيرة حفلة لاستقباله، شهدها جمهور من ذوي الثقافة، وفيهم من لا يزالون يسبحون بحمد المستشرقين، ويفرحون بما يرجفون به من مفتريات، وفي الحفل صعد وزير المعارف، يكرم المستشرق الزائر ويفتتح الكلام عن مزاياه ومباهيه، وكان من المتوقع أن يتوالى الأساتذة الجامعيون ومن يلف لفهم على منصة الخطابة

يوالون ثناءهم على الرجل وجهوده! حتى قام الأستاذ (عبد العزيز جاويش) وفاجأ الجميع حينما صعد على المنصة مقحمًا نفسه بعد كلمة الوزير، ثم كان كلامه الرنان، وخطبته اليقظة حين كشف ما كان خافيا، وأبان كيف انفعل الجميع بالضيف وهم جاهلون لسيرته وفكره وآرائه في دينهم وهويتهم، حيث قال جاويش: إن كلمة وزير المعارف، تدل على أنه لم يقرأ شيئا عن هذا المستشرق الذي تكرمونه، إذ أن المؤلفات التي تحدث عنها الوزير وسيتحدث عنها بالطبع من أعدوا أنفسهم للكلام، ليست إلا طعنات مسمومة للفكرة الإسلامية، وقد قرأتها أثناء إقامتي في إنجلترا، وناقشت صاحبها فلم أجده إلا يخطئ عن عمد، فهو يدري الصواب ويتجنبه، ثم يلمس أوهى الروايات ليبني عليها ما يروق له من التدليس والافتراء! ولو كان لدينا وعي ثقافي لكرمنا الرجل كضيف فقط، لا كمؤلف علامة بحاثة!

فما أن انتهى جاويش من كلمته، حتى ارتج الحفل واضطرب الوزير وتساقط عرق الخزي عمن أعدوا أنفسهم للكلام.

ثم جهر قائلا: "يا للمذلة، أوصل الانهيار بالمسلمين إلى حد يجعلهم يقيمون حفلات التكريم لمن يصم دينهم بالتوحش والغلظة والشهوة في عاصمة الإسلام.!"

وهكذا تكون صورتنا حينما نجهل ونحكم على ما نجهل قبل أن نعرف، فإذا عرفنا أصبنا ووعينا، تماما كما عرف الأوزاعي ووعى، فزال عن حكمه ما كان من جهل وأخطاء.!

قال ابن المبارك: قدمت الشام على الاوزاعي فرأيته ببيروت فقال لي: يا خراساني من هذا الذي خرج بالكوفة يعني أبا حنيفة فرجعت إلى بيتي فأقبلت على كتب أبي حنيفة فأخرجت منها مسائل من جياد المسائل وبقيت في ذلك ثلاثة أيام فجئته في اليوم الثالث وهو مؤذن مسجدهم وامامهم والكتاب في يدي فقال: أي شيء هذا الكتاب؟ فناولته فنظر في مسألة منها وقعت عليها عينه قال النعمان بن ثابت، فما زال قائما بعدما أذن حتى قرأ صدرًا من الكتاب، ثم وضع الكتاب في كمه، ثم أقام وصلى، ثم أخرج الكتاب حتى أتى عليها فقال لي: يا خراساني من النعمان بن ثابت هذا؟ قلت: شيخ لقيته بالعراق فقال: هذا نبيل من المشايخ، اذهب فاستكثر منه قلت هذا أبو حنيفة الذي نهيتني عنه.!

ألا فلنعلم قبل أن نتكلم.!

من أخطر ما يبتلى به الإنسان، أن يسمح لظنونه بأن تدير علاقاته مع الآخرين فيشقى ويشقي غيره.. قاعدة العلاقات: "اسمع مني وليس عني "

إذا كانت لك عينان فلماذا ترى الناس بأذنيك عاملهم بما ترى منهم، لا بما سمعت عنهم، فعشاق التأليف كثيرون.. إياك أن تقول كلاما فيه اتهام لمسلم، لا تستطيع أن تثبته إذا قيل لك يوم القيامة: "هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين "ولن ينفعك أن تقول حينها: سمعت.. وسمعت..

عندما تتحدث في ظهر أحد، حاول أن تتحدث فيما تستطيع أن تتحمله، لأنك ستُبلى به يوماً ما.. لذا قبل أن تحكم على إنسان، اسمع منه ولا تسمع عنه، اعرف ظروفه وعشها، وبعدها لا تتكلم عنه إلّا خيراً أو اصمت.

من منا إذن يستطيع أن يعرف كل هذه التفاصيل حتى يتسنى له الحكم على الآخر، فالقاضي يحكم لأن أمامه قضية مكتملة الأركان والتفاصيل، وعنده مرجعية تشريعية وقوانين يحكم من خلالها، ولكن نحن كيف لنا أن نحكم بدون معرفة كاملة ومراعاة لكامل الظروف... ألم يحكم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بوقف إقامة حد السرقة في عام المجاعة قياسا على قوله عز وجل: (فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم) [1] . حيث إن السارق قد سرق لضرورة ملحة، وليس من أجل السرقة، فهل هذا معناه إباحة السرقة؟

لا تحكم على الآخرين فأنت لا تعرف ما يخالجهم من نية، ولا ما يحيطهم من ظروف ولا ما يحركهم من دوافع، ولا حتى تعرف لو كنت أنت مكانهم كيف ستتصرف؟، هل مثلهم أم بطريقة مختلفة؟؟؟ فاترك الحكم لله على الآخر، واحكم أنت على نفسك فأنت أكثر دراية بتفاصيلك التي تمكنك من الحكم على نفسك، وأعمل بحكمك. [2]

---

١ – سورة المائدة

٢ – من مقال لا تحكم إلا على نفسك باليوم السابع

تأثرتُ كثيرًا لقصة عن أحد الأطباء المتخصصين، الذي قامت إدارة المستشفى باستدعائه لإجراء جراحة فورية لأحد المرضى. وقبل إجراء الجراحة، التقاه والد المريض صارخًا: لِمَ التأخر؟! إننا ننتظر وصولك والزمن يمر بنا كالدهر، وحياة ابني الوحيد فى خطر داهم، وهو معرض للموت فى أيَّة لحظة! ألا لديك أي مشاعر أبوة؟ نظر الطبيب إلى الأب، وحاول تهدئته قائلا: أرجوك أن تهدأ، وسأقوم بعملي، وثِق بالله الذي يرعانا جميعًا. إلا أن الأب استشاط غضبًا من هدوء الطبيب، وقال: أرى أنك لا تدرك مشاعر الأب!! أتُراك كنتَ تشعر بمثل هذا الهدوء الذي يصل إلى حد البرود، لو كانت حياة ابنك هي التي في خطر؟! نظر إليه الطبيب نظرة خاطفة، وأسرع نحو غرفة العمليات. مر الزمن بطيئًا حتى خرج الطبيب بعد ساعتين، وقال لوالد المريض وهو على عجل: أشكر الله لقد نجحت العملية، وابنك بخير.

أسرع الطبيب بالمغادرة دون أن يُعطى والد المريض الفرصة في إلقاء أي سؤال عن صحة ابنه، شعُر الأب بغضب شديد، وتوجه إلى الممرضة قائلًا: إن هذا الطبيب شديد الغرور. أجابت الممرضة: قد تُوفى ولده في حادث سيارة، ومع هذا فقد حضر عندما علِم بالحالة الحرجة لولدك! وبعد أن أنقذ حياة ولدك، كان عليه أن يُسرع ليحضر دفن ولده! صمت الرجل.!

"تذكر أن الحكم على الأمور، أو الأشخاص، أو المواقف، هو من أصعب الأمور؛ فكُن إنسانًا في الحياة؛ لأن الآخرين يحتاجون إلى أن تشعر بهم، وتدرك أن لديهم آلامهم التي قد لا يستطيعون التعبير عنها.

وفى طريق الحياة، نلتقي من يقدم إلينا النصح والإرشاد؛ فاهتم، وفكِّر، وادرُس ما يقوله دون أن تهتز من أسلوب تعبيره؛ فقد قيل: "إذا نصحك شخص بقسوة، لا تقاطعه، بل انتفع بملاحظته؛ فوراء قسوته حب عظيم، ولا تكُن كالذي كسر المُنبِّه لأنه أيقظه!". حاول أن تدرك قيمة كل ما يمر بك فى رحلة حياتك من أحداث وكلمات دون أن تنزعج منها؛ فالحياة رحلة، إن صعُبت في بعض طرقها، لا تتوقف، بل اتجه نحو الأمام دائمًا." [1]

---

[1] – من مقال–لا تحكم على أحد للأنبا أرميا الأسقف العام رئيس المركز الثقافيّ القبطيّ الأُرثوذكسيّ.

واجبنا نحو المواهب الشابة

أنا واحد من أولئك الكتاب الذين يؤمنون بتشجيع المواهب، والوقوف بجوارهم وتحفيزهم ما استطعت إلى ذلك سبيلا.!

ومع أنني لا أملك شيئًا من الإمكانات الكبيرة التي تؤهلني لتعزيز هذه المواهب وتطويرها، وصقل جهودها وتجاربها، إلا أنني أعتبر مجرد الكلمة والتوجيه البسيط، شيئا كبيرًا وضروريًا تستريح له نفسي، وتشعر أنها معه تقوم بدور مهم في هذا الميدان.

هناك شباب موهوب، وعقليات باهرة، تنتظر فقط من يشد من أزرها ويدعمها، حتى تولد للوجود، ويشار إليها بالبنان، ويعرف الجميع قدراتها.

وحينما كنت أؤلف كتابي (التشجيع يصنع المعجزات) أدركت هذه الأسرار، وآمنت إيمانا قويًا بساحرية التحفيز في خلق القدرات والطاقات ودفع المواهب، وقد طالبت فيه أن يكون التحفيز خلقًا نتحلى به، وثقافة نعمل على إفشائها وتأصيلها في مجتمعاتنا.

وكنت معجبا أيما إعجاب بمقولة المرحوم الدكتور زويل: "إن الفرق بيننا وبين الغرب ليس لأنهم أذكياء ونحن أغبياء، ولكن لأنهم يشجعون الفاشل حتى ينجح ونحن نحارب الناجح حتى يفشل"

أحيانًا يثقل علي بعضهم بقراءة قصة كتبها، أو رواية أنشأها، وأمام همومي الثقيلة وأعبائي في عملية التثقيف، وما فيها من قراءة وكتابة، أجد ذلك إزعاجًا ضخمًا وتعطيلا مؤرقًا، لكنني مع ذلك أحاول أن أضع يدي على ما ينقص الكاتب من مقومات، وما يتميز به من إيجابيات، حتى أعرف كيف أوجهه وأقوم بتحفيزه ودفعه إلى الاتجاه السليم الذي يفيده وينطلق منه.!

كما أني أعتبر أولئك الكبار الذين لا يكون في حياتهم وجهدهم ورسالتهم جزء معتبر لتشجيع المواهب الصاعدة، والطاقات الشبابية الناهضة، مقصرين أو آثمين في حق الابداع والثقافة والتطور والنجاح، قرأت في حياة (نجيب محفوظ) ورأيت كيف كان (سلامة موسى) يقف بجواره ويشجعه ويحفزه، وأنه أول من نشر له رواية مطبوع عليها اسمه، وكان رجلا مثقفًا ترك بصماته في حياة أديب نوبل.

وفي عام (١٩٣٣) م رأت مشيخة الأزهر، أن تحيل رئاسة تحرير مجلتها للكاتب والأديب العبقري النابه (محمد فريد وجدي) وكان اسمها في ذلك الوقت (مجلة نور الإسلام) واستطاع وجدي أن ينتقل بالمجلة نقلة نوعية، بل قيل إنها في ذلك الوقت صارت تضارع بما اتسعت في نطاقها الفكري كبرى المجلات العلمية في مصر، فأخذت تزاحم المقتطف و(الهلال) و(الرسالة) و(الثقافة) لدى المثقفين الكبار، بعد أن كانوا يعدونها مجلة دينية خاصة بالمعممين، يتحدثون فيها عن مسائل الفقه من فرائض الوضوء والصيام وشروط الزكاة.

ولكن شيئا مهما لابد من الوقوف عليه في أثناء إدارة هذا الأستاذ الكبير لهذه المجلة، فعلى قدر ما كان يكتب فيها كبار الكتاب الذين انتدبهم إليها، لم يغفل أبدًا أن يقوم برسالته في تشجيع الأجيال الناشئة، وتحفيز المواهب الشابة، فقد كان بعض طلبة المعاهد الأزهرية في ذلك الوقت تدفعهم حماستهم الأدبية أو يكتبوا بعض القصص الأدبية، أو دواوين الشعر المبتدئة، وكانوا يبذلون جهودهم في طباعتها، ثم يرسل أحدهم نسخة مما أنتج إلى مدير تحرير مجلة الأزهر مع ما يرسله إلى كبرى الجرائد والمجلات، فلا يجد اهتماما أو صدى إلا بمجلة الأزهر، إذ يقوم الأستاذ وجدي بكتابة صفحة كاملة عن كتيب صغير لمؤلف ناشئ، رأى في قلمه الهش ما يشي بنبوغ مبكر له مستقبله إذا نما وازدهر، فآثر أن يشجعه بمقال عاطف!

وكان يقول في هذا الشأن: "إن تشجيع الطلاب إذا وجد لديهم ما يدل على حسن الاستعداد عمل ضروري لا محيد عنه، فالطالب إذا رأى المجلة تحتفل بأثره الناشئ، واصل البحث كاتبًا والشعر ناظمًا، وأكب على الاطلاع، وقد يكون منه في المستقبل رجل ذو شأن"

وصدق الرائد فيما قال، فإني أتذكر أن من أهم المقومات التي ساهمت في تكويني واتجاهي نحو الكتابة، مجلة الازهر، والتي كان لها دور كبير، وفضل أساسي في تشجيعي وتوجهي نحو الكتابة، حينما كنت أراسل فيها باب بريد القراء، وكانوا ينشرون لي كل ما أكتب، كان ذلك وأنا في المرحلة الثانوية، ثم جاءت مرحلة الجامعة، فكانت جريدة آفاق عربية لها الفضل الأكبر في استكمال المسيرة، حينما كانت تنشر لي مقالات كثيرة وقوية ومعبرة، راسلت كثيرًا من

الصحف والمجلات، وكانوا جميعًا ينشرون لي، لكن تركيزي الأكبر، كان على هاتين النافذتين لسعة انتشارهما ونفاذ أعدادهما وامتداد جمهورهما.

وبهذه العناية من المجلة والجريدة تكونت صداقة بيني وبين القلم، وصرت أهتم بأمر الكتاب والكتابة والقراءة والمطالعة، ويمكن لي أن أعبر بدقة أكثر، أنهما كانا المشجع الأساسي لمسيرتي في دنيا الكتابة والثقافة، فالنشر له مذاقه الخاص وحلاوته التي لا يمكن لك الاستغناء عنها لو تذوقتها ابتداء، وحينما تدمنها تجد نفسك تنجرف لتحصيل كل ما ينميها ويزيد بريقها، وعلى رأسها القراءة ومن هنا تطورت المسألة، من مجرد طالب وتلميذ يكتب كلمات في أبواب البريد، إلى كاتب وباحث ومؤلف يشعر في قلمه بجموح لا هدوء فيه، وصولة لا سكون معها، وعزيمة لا دعة أمامها.

عرفني الكثيرون عن طريق كتاباتي، وكثير من أصدقائي كانوا يتمنون أن يكونوا مثلي في الكتابة والمراسلة، وقد يكون من بينهم من هو أكثر موهبة مني، لكنني قد هديت إلى سر التطور، وركبت القطار الذي بلغ بي ما بلغت وهو النشر الذي يعد من أكثر الأمور المحفزة على التطور في دنيا الكتابة، بل يمثل الوقود الذي يدفع قلم الكاتب ليأتي بالمبهرات، وكما قال نجيب محفوظ: كان النشر لدينا هو قمة المجد الأدبي.

كنت كلما نشرت مقالة، أسارع بعدها لأعد التي تليها، وأسابق الزمن في كتابة الأفكار فكرة بعد فكرة، حتى تكون زادًا أنتهل منه وأرسل به لينشر، حتى تكون رصيد كبير من المقالات والأفكار التي يمكن أن تكون نواة لمادة قيمة ومعلمة ثقافية لا يمكن انتقاصها أو الاستقلال بها.

وقد حاولت أمام هذا السر أن أرشد الكتاب ومحبي القلم، ممن ينشدون التطور والاحتراف في دنيا الكتابة، فكان نصحي لهم أنهم اليوم محظوظون أكثر من غيرهم، حينما توفر لكل منهم صحيفته الخاصة في الفيس بوك، ينشر فيها آراءه ومقالاته التي يقرأها أصدقاءه ويبدون فيها آراءهم وأطروحاتهم، وهو عمل يساهم كثيرًا في تطور الكاتب، حينما يكون له كل يوم قراء ينتظرون أفكاره وأطروحاته، وكل ما لديه من جديد الفكر والمعرفة.!

اغتنموا صفحات الفيس بوك مواقع التواصل الاجتماعي في تطوير أقلامكم، وامتداد ثقافاتكم، واجعلوا منها منارات تحفزكم للأمام.!

ولعظم النشر ومكانته في النفس وتأثيره في وجدان أصحاب الأقلام، كان الكاتب الكبير أحمد أمين، لا يجد وسيلة أبلغ منه في تشجيع أبنائه الذين كانوا فيما دون العشرين فمنهم ابن ١٥ سنة ومنهم ابن (١١) سنة، كان ينشر لهم ويطبع قصصهم التي يؤلفونها، ومجلاتهم التي ينشئونها في مدارسهم هم وأبنائهم، ولا يستقل منها ومنهم أبدًا، وقد نجحت خطته فخرج أبناؤه كتابا كبارا وأدباء معروفون.

يقول جلالا أمين: " كان أبي حينما بلغت أنا وأخي حسين سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، يسمح لنا بنشر بعض ما نكتبه في مجلة الثقافة، تلك المجلة الرفيعة التي كان يرأس تحريرها طوال عمرها"

ولا شك أن أساليب أحمد أمين، قد نجحت في شحذ همم الصغار والزج بهم في عالم القلم والكتابة والنشر، بل لفتهم إلى المسؤولية تجاه أنفسهم، حينما تحملوا مسؤولية أقلامهم بعد أن أدركوا أن لها مكانًا وقيمة، يجب أن يحافظوا على مستواها ومكانتها بين العمالقة الكبار.

القرية العارية

هل سمعت من قبل عن قرية تعرت، وانكشف ستار أهلها، وعرفت سواءاتهم وعوراتهم.. نعم حدث هذا في قرية ريفية لا داعي لذكر اسمها حتى لا يغضب أحد من أهلها.. الذين هم ككل البشر، لا يقبلون أبدًا إلا المدح، ولا يحبون أن يذاع عنهم إلا الكمال.!

كان ذلك في فترة التسعينات، حينما عرفت القرية التليفونات وتسابق الجميع لامتلاك وتركيب الهاتف الأرضي.. والذي كان في بدايته لا يخلو من كثير من الأعطال والأعطاب، التي تستمر بضعة أيام حتى يأتي عمال الصيانة ليصلحوا ما فسد منه.

وفي يوم من الأيام أصيبت أسلاك الهاتف الأرضي ومحطاته بما يشبه السرطان، فتداخلت الخطوط بعضها في بعض والتقت الأسلاك تحتضن بعضها، كأنها عشيقان يذوب أحدهما في

الأخر، وأظهرت الكيابل في العطاء لبعضها واستخراج ما في جعبتها كأزهى ما تظهر فيه كرما وجودا، فما أن ترفع سماعة الهاتف حتى تستمع إلى مكالمة خاصة، لفرد من أفراد القرية، يحكي أسرارًا لا يجب أن تنكشف أو يعرفها أحد، رجال كثيرون ونساء، شابات وشبان، ربات بيوت وكبار وصغار ورجال أعمال، كثيرون انكشفت سيآتهم وما يخفونه من دفائن ومكتومات لا يعلمها غيرهم.

كان أحدهم يظنه الناس أنه محترما فإذا به منحطا.

كان هناك من يظن الناس بهم الكرم فإذا هم قمة في البخل

كان هناك من يظن الناس بهم العفة والطهارة، فإذا بهم موغلون في النذالة والسفاهة

كان هناك من يظن الناس به الشجاعة فإذا هو جبان.

كان هناك من يظن الناس، به الأدب والخلق فإذا هو القدح المعلى في انعدام الشرف والأخلاق.

كان هناك من يحترمه الناس، فإذا به يسقط سقوطًا مدويًا.

كان هناك من يبدو من العباد المتقين، فإذا هو من الفاسقين المنحلين.

أسرار كثيرة عرفت وشخصيات كثيرة تعرت.

وكان الجميع رغم معرفتهم باختلاط الخطوط، إلا أن شهوتهم في الكلام عن أسرارهم أعمت عقولهم عن التحسب واتقاء هذا البلاء الفاضح، وكان أحدهم حينما يسمع غيره يظن أن الأخر لا يسمعه، وأنه بمنأى عن هذا الاختراق.

وكان مما عرفنا من هذه القصص، حكاية رجل كان مغرمًا بامرأة، كما كانت هي الأخرى مغرمة به، كانا يحكيان حبهما وشغف كل منهما بالأخر، كانت متزوجة لكن زوجها غائب عنها، فلم تستطع أن تكتم حاجتها لرجل يملأ حياتها.

وأمام هذا الضعف استطاع الرجل أن يسلك طريقه إلى قلبها، ولم يكن السامع يصدق أن هذا الرجل هو هو صاحب السيرة الحسنة، والمكانة الرفيعة المرموقة، ومن يسير في الشارع فيبجله الناس ويحترمونه وينال من نفوسهم تقديرًا كبيرًا.

أخذ السامع يفكر كيف يتدخل ليفصل في هذ الأمر؟

واستقر به التصرف أن يرسل خطابًا لزوجة الرجل المحترم، الذي تبين أنه غير محترم، حتى ترده ليترك تلك المرأة في حالها، فلا يشغل فكرها حياتها لأنها متزوجة، وبالفعل وقع الخطاب في يد الزوجة التي صمتت ولم تبد على ملامحها أي شيء حتى تتأكد من صدق ما عرفت، خاصة أنها تلاحظ غياب زوجها وقتا طويلا في حجرة المكتب ومعه التليفون في جنح الليل بحجة العمل، واقتربت من باب الحجرة، فسمعت من الكلام ما أكد لها الخبر.. وتشتعل نار الغيرة في قلب الزوجة، حتى أعمت عقلها عن التفكير إلا في شيء واحد فقط وهو الانتقام، وفضح تلك المرأة التي تحاول السطو على زوجها، وفي السوق الذي يعج بمئات من نساء القرية ورجالها، أخذت تبحث عنها حتى عثرت عليها واحتكت بها، وكانت معركة هائلة، يعلوها السباب والشتام والفضائح المدوية، التي تسبب فيها خطاب المتنصت، بل تسبب فيها الهاتف الأرضي بأعطاله وتداخلاته، عرف الزوج بالخبر الذي شاع وانتشر ومس العرض والشرف، فرجع من سفره مجروحًا محزونًا متواريًا، يحاور نفسه ويتساءل: هل الذنب ذنبي أني تركتها سعيا وراء عملي ورزقي، أم أنها السبب حين لم تحفظ لي غيبتي؟

هل أقتلها على هذه الخيانة وهذا الغدر؟ أم أقتل هذا السافل الذي غرر بها وتسبب في فضحنا؟

وأمام هذا الحوار النفسي، لم يتحمل الزوج أن يعيش معها مرة أخرى، فطلقها وتشردت الأسرة وضاع الأبناء بعد أن ساءت السمعة وأهين الشرف.

وإذا كنا نلوم أحدًا على التفريط في الأخلاق والانجرار وراء شهواته، فإن اللوم الأكبر إلى هؤلاء البشر الذين يفتقدون خلق الستر، ويتحولون إلى فضاحين شياعين للفحش، لأن قيمة الستر حينما يلفظها ويتجرد منها المجتمع فإنها أكبر عوامل انهياره وضياعه وتفسق روابطه وانحطاطه.. ومن هنا ربط نبينا الكريم قيمة الستر بمصير الانسان في الدينا والأخرة حينما قال: (لا يستر عبد عبداً في الدّنيا إلّا ستره الله يوم القيامة) [1]

[1] - رواه مسلم

وقال: (من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته)[1]

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة)

حينما نكون حمقى!

إن المرء ليعجب كثيرًا من هؤلاء الناس الذين يأخذون بالشبهة ويبادرون بالتهمة دون تبين، ألا إنهم بهذا السلوك قد يظلمون الناس، ويفترون عليهم، ويحرضون العامة على ذمهم، ويلصقون بهم ما ليس فيهم.

وإذا سألت أحدهم عمن يتهمه ويسبه ويدعو عليه: هل تعرفه؟ فيجيبك بقوله: لا ولكني سمعت عنه!

وهنا يقع الظلم الكبير، حينما نحكم على الناس والأشخاص دون تبين ومعرفة فنظلمهم كثيرًا.

ولعلها قضية محورية في حياة الناس، وأمرًا من الأمور التي تفسد بسببها علائقهم، ومن هنا كان حفيًا بالقرآن الكريم أن يلمسها ويعرض لأمرها، وينوه بخطرها في دنيا المؤمنين، حيث قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ"[3]

والمعنى كما قيل: "يا من اتصفتم بالإيمان، وصدقتم بكتاب الله، وآمنتم برسوله، لا تسمعوا لكل خبر، ولا تصدقوا كل إنسان، بل تحقَّقوا وتثبَّتوا من الأمر، قبل أن تصيبوا إخوة لكم مؤمنين، بسبب خبر لم تتحققوا من صحته، وكلام لما تتأكدوا من صدقه، فتندموا على ما فرَط منكم، ولكن لا ينفعكم حينئذٍ الندم."

---

[1] – رواه ابن ماجه وصححه الألباني

[2] – رواه ابن ماجه وصححه الألباني

[3] – الحجرات :٦

وقد يحدث هذا الأمر بين العامة والغوغاء، وكثير من الذين يفتقدون الحكمة والروية والفهم والوعي والرشد، لكن الطامة حينما يقع بين أهل العلم والفضل والبيان للناس، ذلك أن تأثيرهم وترويجهم للشبهة والتهمة يكون أكثر من غيرهم، فترى واحدًا من هؤلاء لم يقرأ سطرًا واحدا لجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، ولم يعرف أي شيء من تفاصيل حياتهما، ثم يبادر للطعن فيهما وهم أهل التقوى وأئمة الدين، ووصفهما بعداء الإسلام وموالاة خصومة، والانتساب للمنظمات التي تكيد للدين، حتى أنك تضحك وتضحك وتغط في موجة كبيرة من الحيرة الممزوجة بالدموع، من فرط هذا الجهل البين والظلم العنيف، لشخصين أبيا أن يحييا في هذه الدنيا إلا لله تعالى ونصرة دينه وإسعاد خلقه.

كان الشيخ عبد الله القرعاوي، من أئمة الحجاز يروض تلاميذه دومًا على الحلم والحكمة والتبين والتثبت حتى يصححوا خرافات الناس، ولا يتهمون أهل الحق في دينهم، فكان كثيرًا ما يروي عليهم نبأ أحد شيوخه الذي تلقى عليه العلم في إحدى مدارس الهند، فلا يمر به ذكر الإمام محمد بن عبد الوهاب، إلا صب عليه سياط غضبه، ثم يختم بالتضرع إلى الله تعالى أن ينقذ الإسلام والمسلمين من شر دعوته إلى يوم الدين، حتى ليكاد يجعل من ذلك ورده الملزوم في أعقاب كل درس!

يقول الشيخ: ولم يكن معقولا أن أواجه الرجل بأي اعتراض على فكره يمتلئ بها صدره وصدور سامعيه إيمانا بها، لذلك عمدت إلى حيلة، فأخذت كتاب التوحيد تأليف الإمام محمد بن عبد الوهاب، ونزعت عنه غلافه الذي يحمل اسمه، ثم تركته على منضدة الشيخ دون أن يعلم مصدره.. وشاء الله تعالى أن يقرأ الشيخ ذل الكتاب ويستوعبه بدقة، فراح يبدي إعجابه ويسأل عن مؤلفه العظيم، حينئذ أعلنت له الواقع، فما كان من الرجل إلا أن قال: لقد ظلمنا هذا المصلح العظيم كثيرا، ولا نجد كفارة لما أسلفنا إلا أن ندعو له بمقدار ما دعونا عليه!

وهي نفس مأساة الكثيرين اليوم وهم يذمون الوهابية ويقرنونها بالإرهاب والتشدد والتطرف، ولم يقرؤوا شيئا عنها وعن صاحبها ودعوتها وغايتها.

لكن ليست المشكلة فيمن يتهمون بدون علم فقط، ولكن المأساة فيمن يتهمون بغير فهم وعلم ودراية وسؤال..

منذ أيام وجدت أحدهم يتهمني على الملأ بأنني أشوه صورة مفكري الإسلام وعلمائه المصلحين، وأنا الذي قضيت ما سلف من حياتي أقبل التراب الذي يطؤونه بأقدامهم، ويقول لي: ما رأيك في أنور الجندي؟

فقلت له وهل مثلي يُسأل عن هذه القامة الكبيرة، التي كان لها عظيم بلاء في الدفاع عن الإسلام و تراث الأمة؟

فقال لي: لقد نشرت مقالا لك بعنوان (الأذكياء المخدوعون) في تاريخ كذا، واتهمت فيه الأستاذ الجندي بأنه ألف كتابين عن عبد الناصر مدحه فيهما، وهذا تلبيس على شخصية الجندي، ووصفه بأنه منافق معوان للظالمين.!

وتعجبت من هذا الكلام وهذا الفهم، وهذا الإصرار الحاقد بأنني أشوه حقيقة علم كبير من أعلام الأمة.. ثم تحداني على الملأ، وطالبني بإثبات ما ذكرت، كان هجوم الفتى ولغته في المباغتة تثير العجب، من هذه النفسية التي تضج بالكره لي، والسخط علي، والحقد على شخصي، فقلت له: اصبر حتى آتيك بالدليل ليضحك الناس عليك، فقد ذكر الأستاذ الجندي أنه كان كأناس كثيرين متنبئا بالخير في الثورة ورجالها، وكان يطلق عليها الحركة المباركة، ويحسن الظن بجمال عبد الناصر، ويرى فيه أمل هذا الوطن وبداية تحضره ونهوضه، بل كان مفتونًا به كغيره من المصريين، ودفعه هذا الاعجاب أن كتب عنه أكثر من كتاب مثل: هذا هو جمال من بني مر إلى الجمهورية العربية المتحدة وطبعته دار المعارف عام ١٩٦٠م، وكتاب جمال عبد الناصر وكفاح الشعب وطبع عام ١٩٥٦م ، وكان قد ألف كتابًا ثالثا بعنوان الشروق الناصري، لكنه طواه ولم يعد طبعه بعدما تكشفت حقيقة الطغيان الناصري وشخصية الزعيم الدكتاتور المستبد الذي قاد الوطن للهزيمة والعار.

لم يستوعب الفتى هذا الكلام، ولم يستوعب أن الأستاذ الجندي قد خُدع أو ظن شيئا وأفاق منه، وبعد أن أتيته بالدليل والمصدر من كتاب الزاهد للقاعود ومصابيح على الطريق

للجندي، قال متواريا: إذن دعواي صحيحة فلماذا لم تذكر المصدر، تعلم مرة ثانية أن تذكر مصدر المعلومة.!

فقلت له: أي مصدر وأنا لم أكتب مقالا علميًا أو بحثا أكاديميًا، وإنما هي معلومات من قراءاتي أناقش فيها قرائي؟

قد نختلف ونظن الظنون ونرى ما ننكره.. ولكن علينا التبين والتثبت ولا ندرج من أنكرنا عليهم سراعا إلى ساحة العداء.. فذلك من سوء النفس وفساد الطوية.

مصيرنا مع الأخلاق

وقفت طويلا أمام وصية عمر بن الخطاب ﷺ للجيش الذي ذهب لهدم كسرى وتقويض عرش فارس، لقد قال لهم في رسالته: " أما بعد؛ فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال؛ فإن تقوى الله أفضل العدّة على العدوّ، وأقوى المكيدة في الحرب.

وآمرك ومن معك أن تكونوا أشدّ احتراسا من المعاصي، منكم من عدوّكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوّهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة؛ لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدّتنا كعدّتهم، فإذا استوينا في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا."

لقد كان عمر يدرك أن التمسك بالقيم والأخلاق والطاعة والعبادة، سبب النصر والذخر والاعتلاء والتقدم والقوة.

وهكذا الاخلاق دوما مبعث كل تطور ونهوض وقد صاغ شوقي هذا المعنى في قوله:

على الأخلاق خطوا الملك وابنوا فليس وراءها للعز ركن.**

وقال:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت * فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا**

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم * فأقم عليهم مأتما وعويلا**

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه * فقوّم النفس بالأخلاق تستقم**

كثيرون من الناس رفعتهم أخلاقهم، وارتقوا من المراكز والمناصب والمواقع، مالم يكن يحلموا به بفضل أخلاقهم.

مواقع كثيرة في الدنيا قد لا تسعفك إليها قدراتك وكفاءاتك، بقدر ما تصيبها وتزلل لك ركوبها أخلاقك وتقديرك للقيم والفضيلة.

بل هناك بعضهم من تسببت أخلاقه في نجاته من الموت والهلاك، وقصة أبي يزيد البسطامي معلومة معروفة، حينما رفض أن يكذب في جوابه على قاطع الطريق، الذي سأله: ما معك من المال.

إن حسن الخلق والتأكيد عليه يسهم في شيوع التسامح والمحبة بين الشعوب والمجتمعات.

الطب مهنة راقية ولابد فيها من الأخلاق والاتزان فالطبيب يعرف الكثير من أسرار المرضى ويطلع على خصائصهم، أو بمعنى أدق أشياء كثيرة من عيوبهم، ولو أنه كان شخصا خفيف العقل طائش التقدير، لنشر وأذاع ما يحب الناس ستره ويتأذون من إشاعته، واطلاع من حولهم عليه.

سمعت عن طبيب كلما جاءته مريضة، صمم وأصر أن تبصره من عورتها ومفاتنها حتى ينظر إليها ويغذي منها نظره ويروي شهوته، وهو بهذا غير مؤتمن على أعراض الناس، ويخون مهنته ويمينه ودينه، ويستغل مهنته.

ما أروع هذا الطبيب الفرنسي (رينيه لاينك) حينما كان في العام ١٨١٦م وأتته شابة مريضة، وشعر أن لديها مشكلة في القلب وأراد فحصها، لكن كانت أخلاقه تمنعه من أن يفعل طريقته المعتادة مع المرضى، وهي أن يضع أذنه على الصدر ليسمع ضربات القلب ويشخّصها، ففكر في طريقة يستطيع بها حل المسألة، والتفت حوله وقرر أن يأخذ ورقة ويلفها حتى تكون مثل الأنبوبة (أو مثل الناي، ذلك أنه أيضاً كان يعزف الموسيقى)، وبعدها وضع طرفاً على صدرها واستمع لضربات القلب من الطرف الآخر، وابتهج الطبيب بعدها قائلاً للمجتمع الطبي: "كم تفاجأت وسعدت! لقد صرت أسمع ضربات القلب أوضح من ذي قبل" وعكف على صناعة شيء من الخشب المجوف، ولما انتهى وإذا به أشهر اختراع طبي إلى اليوم، "السماعة"

بدأت تنتشر بين الأطباء، إلا أن البعض عارضها، منهم طبيب أميركي قال ساخطاً: "لدينا آذان تسمع جيداً، فلماذا نسمع بغيرها؟"، إلا أن الاختراع الجديد نال استحسان المجتمع الطبي لوضوح الأصوات التي يمررها للأذن وهو أمر أتاح للأطباء أن يسمعوا أصواتاً أدق من ذي قبل، ويشخصوا أمراضاً لم يكونوا ينتبهون لها بالسمع المجرد، وهكذا فُتِحت نافذة جديدة في الطب.

أرأيت كيف تقود الأخلاق للنصر والفتح والتقدم والفلاح؟

الذوق حضارة

قرأت في صفحة أحد الأصدقاء هذا الموقف للفنان يوسف وهبي يقول فيه:

"عندما كنت أمضي اجازة العام الماضي في أوروبا، زرت لندن.. واستأجرت شقة مفروشة لإقامتي، وما أن وضعت حقائبي فيها حتى زارني مستأجر الشقة العليا وسألني عن مواعيد نومي ويقظتي!

ودهشت في بداية الأمر ولكنني - بعد أن عرفت السبب - أيقنت أن نجاح الانجليز في حياتهم الاجتماعية يعود بلا ريب الي معرفة كل فرد منهم بما له وما عليه.. لقد كان سبب الزيارة والسؤال، أن جاري يرغب في تنظيم مواعيد لعب أطفاله بالحديقة بحيث لا تقع في أوقات نومي فتضايقني!

وإن هذه الحادثة لتتمثل في ذهني كلما وقع بصري علي أوجه الفوضى في حياتنا عموماً.!

إن نجاح الدولة من نجاح الفرد، ونجاح الفرد يتوقف على طريقة احترامه لحقوق الغير "

تذكرت هذا الموقف من بعض من نراهم في حياتنا وهم لا يفقهون أي لون من ألوان الذوق والفهم والأدب، فجاري السوداني منذ أيام، يوقظنا في نصف الليل بدقات عنيفة مزلزلة على الحائط، أيقظ معها كل سكان العمارة، وليتها دقات بسيطة وتنتهي، ولكنها زادت على نصف ساعة.!

[1] - من مجلة الاثنين والدنيا عام ١٩٥١

ولعل موقف الفنان يوسف وهبي يشابه تمامًا ما حكاه الفنان عادل أدهم حينما قالت له منى الحسيني: لمن تعطي شهادة تقدير فقال لها: أعطيها لرجل أجنبي وليس مصريا، فحينما كنا مجموعة من المصريين نصور فيلما في كندا، ولما جاء وقت الراحة، فعل كل منا ما يحتاجه حتى نادى علينا المخرج أن نتجهز، وكان معنا عاملان كهرباء أحدهما كندي والأخر مصري، فلما انتهى المصري وهم للعمل كانت في فمه سيجارة أخذ منها نفسا ورماها في بحيرة، فما كان من العامل الكندي إلا أن رمى أدواته وخلع ملابسه وقفز في البحيرة وكانت درجة الحرارة ١٩ أو ٢٠ وأتى بالسيجارة، وخرج كالمجنون مبللا في جو بارد جدا، وحدث المصري وهو في قمة الانفعال: لماذا؟ لماذا؟ إن الله وهبنا هذه المياه نظيفة لنشرب منها، وأنت تأتي هنا لتفسدها؟!

وهذا رجل لم يكن متكلفًا، ولكنه تربى في بيئة تحترم النعم والطبيعة، وتقدس الذوق، وتعشق التحضر.. وكم تتأذى مشاعري حينما أجد المسلمين في خصومة مع الذوق والتحضر، ودينهم العظيم أعظم الأديان التي أعلت من الأدب، وحثت على الجمال، وقامت على الذوق، ودعت إلى التفوق في السلوك البشري وعمارة الحياة.

ولا أنسى أبدًا صديقنا المعلم المصري الذي وجدناه في الساعة السادسة صباحا في يوم إجازتنا، ينظف الأرضية بالمكنسة الكهربائية، التي أفزعتنا بصوتها المزمجر من أعز نومة، وأشهى رقدة، فلما كلمناه في ذلك ولمناه، تحجج لنا بأنه على موعد وأراد أن ينتهي من دوره في التنظيف قبل أن يذهب، هكذا ولو على حساب راحتنا وهدوئنا، وكنت أقف كثيرًا مع نفسي وأتأمل موقفه وأقول: من أي بيئة غريبة أتى هذا الرجل؟!

وأي نوع من أنواع البشر تربى بينهم فخرج على هذه الجلافة وهذا الحمق، الذي لا نظير له؟!

حقًا إن الذوق تربية وأدب وفهم ووعي وثقافة.

والذين لا ذوق لهم، يفتقدون كثيرا من معالم الانسان السوي الراقي السليم.

أحب الجماد

لا أعرف لماذا أجد أشياء كثيرة في حياتي يحدث بينها وبيني ارتباطا نفسي فأحبها وأهيم بها هيام العشاق، وأشعر أنها لو فارقتني فلن أكون بخير، وأن السعادة ستفارقني معها.

وقد تكون هذه الأشياء جمادات لا قلب لها ولا حس ولا شعور، ولكن بيني وبينها حب عظيم أشعر منها هذا الحب قبل أن أشعره في نفسي، وقد تكون هذه الجمادات أشياء عادية مما يمتلكها الانسان في حياته ويعتبرها غيره شيئا تافها ولا تمثل له أي قيمة.. لكن هذا حالي وهذه نفسيتي وطبيعتي، وقد تكون هذه الأشياء جمادات لا قيمة لها، كأن تكون ملعقة أو كتاب أو ثوب أو حذاء أو كوب أو طبق أو مكتب أو قلم أو ميدالية، وأحد أبرز هذه الأشياء هي المسبحة والتي تسبب لي للأسف نكدًا كبيرًا لأنها أكثر الأشياء التي تنسجم مع نفسي وتتعرض لقنص البائخين المتطفلين النهازين النهابين، الذين لا أستطيع أن أستردها منهم، فما أن يراني أحدهم أسبح بسبحتي وأهيم بها منسجمًا في ذكري لربي، حتى يعدو عليها ويقتنصها مني أو يطلبها ليراها ولا يردها، وهنا أكون في قمة الإعياء النفسي الشديد، فلا أعرف ماذا أفعل هل أتوسل له من أجل سبحة ليرى ضعفي ويتهمني بالهيافة والبخل والخفة، أمام إصراره أن يأخذها لنفسه وهو قابض عليها قبض الأسد على فريسته؟ أم أسلم للأمر محتسبًا أو مفجوعا على شيء أحبه وضاع مني؟!

ألا يدرك هؤلاء الناس قوله ﷺ: "لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبِ نَفْسٍ مِنْهُ" [1]

وقول أحدهم: ما أخذ بسيف الحياء فهو حرام.

إنني من فرط خوفي على مسبحتي أوشك أن أسبح بها في جيبي أو تحت ثيابي هربا بها من أعينهم القانصة وأياديهم الناهبة.

وفي دوحة هذا الحزن والأسى لا أجد ما أمني به نفسي إلا قوله ﷺ: " (ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس) [2]

[1] – رواه الحاكم والدارقطني وابن حبان والبيهقي

[2] – حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيدَ حسنة.

وأتعجب من حالي، فأنا زاهد فيها في أيديهم، فلماذا لا يزهدون فيها في يدي؟!

إن التطفل والقنص أنانية وأثرة بغيضة لا يتحلى بها المؤمن.!

كنت في المسجد يومًا فإذا أحدهم يرى سبحتي تلمع من بعيد فجاء ليجلس بجواري، ولم تكن النية صحبتي أو الاطمئنان على حالي، وإنما كانت الغاية في الغدر بسبحتي، واقتناصها مكرهًا، فلما جلس أمامي، مد يده إلي يدي وأخذها مني، وبعد الانتهاء مددت يدي لأخذها فنحاها جانبًا وقال: دعها لي، قلت له: إنها هدية وعزيزة علي فقال: لا يمكن أن أردها إليك فأنا أريدها.!

قلت له: أنا آسف سآتيك بمسبحة أخرى فدع لي هذه.. فرفض الاصغاء إلى توسلاتي، ولما أكثرت محايلته، إذا به يصيح: عليا الطلاق منتا واخدها، فأُسقط في يدي، وأيقنت ضياع سبحتي، التي فقدت الأمل في ردها أمام هذا اليمين العتي الذي هددني به.

سبحة واحدة أحببتها، وكانت أثيرة في نفسي، إلا أنني أهديتها عن طيب خاطر، وكانت من مدينة الرسول ﷺ اشتريتها بجوار قبره الشريف، ولما رأتها أمي طلبتها مني، فلم أجد نفسي إلا وهي تدفعها إلي يديها برضى كامل، وما زالت وإلى اليوم ومنذ أكثر من ٨ سنوات تسبح الله تعالى وتذكره بها ويأتيني من ورائها الخير الكثير.. أجر التسبيح، وأجر أني آثرت بها أمي التي ولدتني وربتني وأحسنت إلي.

أذكر أن ابن عم لي وكان ينتسب لإحدى الطرق الصوفية، كانت لديه سبحة طويلة من ذوات المائة حبة، وضاعت منه وفقدها، فأخذ يطوف الشوارع والأذقة بحثا عنها ويسأل أصحاب الحوانيت: إن كانوا رأوها أو عثروا على من وجدها، وكان يبتسم لهم، وكأنه يريد أن يشرح لهم حُبه لها، ولكنه في ذات الوقت يخاف إن ظنوا به التفاهة والصغار، فكل الناس لا يعلمون أو يدركون هذا الرباط النفسي الذي أصاب ابن عمي وأتحدث عنه اليوم في مقالي هذا..

قرأت في كتاب لابن القيم أن التسبيح باليد أفضل لقوله ﷺ: "واعقدن بالأنامل فإنهن مسؤلات مستنطقات يوم القيامة"[1]

[1] – رواه أبو داود وحسنه الألباني

إلا أنني أعتبر المسبحة أكبر من مسألة إجراء التسبيح، وإنما هي بمثابة منبه لي ومُذّكر بالله، فكلما رأيتها بيدي تنتشلني من نسياني وغفلتي، فأبادر سريعًا إلى ذكر الله تعالى، وقد عدها بعض الصوفية من شعائر الإسلام ونهى عن إهانتها.

إن أحدهم يتهمني من هذا الحديث بأنني حريص، ووجه إلي اللوم بقوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وأنني لو رغبت في تزكية[1]نفسي وطهرتها فما علي إلا أن أبادر إلى التضحية بهذه الامور، والحق أن الرجل قد خلط خلطا عظيما بين ما أتحدث عنه، وبين ما قاله وذكره، فهبني ذهبت لأنفق ملعقة أو ميدالية أو مسبحة، أو شيئا تافها مما في نفسي، فهل يقبل الناس ذلك؟ أعتقد أنهم سيتهمونني في نفسي ويقولون: إنني أستهزئ بهم... لأنها أشياء لا تنفع الناس في شيء، ولا يجدون في أنفسهم حرصا على طلبها، ولا هي مما ينفق في سبيل الله، حتى نستدل بالآية الكريمة الذي تشترط فيها الحب، وتشترط قبلها الانفاق، فإن كان توفر فيها الحب فهل توفر فيها الانفاق؟! ربما لو أعطيتها لأحدهم لرماها وأهملها، لأنها لا تمثل له شيئا، ولا تأخذ من حبه نصيبًا!

كان الاستاذ محمد عبد القدوس يومًا في إحدى المظاهرات، وضاع منه مصحف صغير قديم يكاد يبلى ورقه من القدم، وكان الرجل يحب هذا المصحف كثيرا وتتعلق به نفسه، حتى أنه نشر عنه في الصحف وطلب ممن وجده أن يرده إليه، وما كل ذلك إلا لأنه كان هدية من الاستاذ عمر التلمساني.

فما قولك إذن لو تبرع محمد عبد القدوس بهذا المصحف وأنفقه في سبيل الله لأنه مما يحبه فهل سيقبل أحدهم مصحفًا قديما باليا؟؟ أعتقد أنك فهمت القصد والمعنى المراد من سطورنا.. أما المال.. فالحمد لله لا تتعلق به النفس ولو ملكت مال قارون لأنفقتها كلها في سبيل الله سعيدًا غير حريص أو شحيح.!

[1] - سورة آل عمران: ٩٢

المحتويات

مقدمة ٣
الغيرة تصنع العجائب! ٥
حينما تمتحن المبادئ ٨
الخوف ليس عيبًا ١٠
أنصفوا أعداءكم ١٣
تصرف غير أخلاقي! ١٥
خصوم لكن شرفاء! ١٨
لا تجعلوا أهواءكم تقودكم ٢٢
لمن تهدي نفسك؟! ٢٥
الإنسانية فوق كل شيء ٢٨
مثقفون بلا احترام ٣١
الإحراج محنة أم منحة؟ ٣٤
الانتصار على الظلام ٣٧
أرجوك دع المستقبل في حاله ٣٩
شبح الفقر يهدد العظماء ٤١
الإعجاز المشهود في فن الردود ٤٣
حينما تضيع المروءة! ٤٦
الرائعون في بلادي ٤٩
الأزهر ينتصر على أكسفورد ٥٢
السياسة نجاسة ٥٤
التحول الخطير! ٥٨
عالجوا الوهم بالوهم ٦٢
لا شأن لكم بذنوبي ٦٥
لا تكفروا بكفاح غيركم ٦٧
هكذا يجب أن نكون ٦٩
السقوط من دنيا الشرف ٧٢
المرأة والنبلاء ٧٤
العاهرة! ٧٧
الاعتراف بالحب ٨١
من أجل المعركة يهون كل شيء ٨٣
دستور أخلاق العلماء ٨٥
حينما نهرف بما لا نعرف! ٨٨
واجبنا نحو المواهب الشابة ٩٣
القرية العارية ٩٦

حينما نكون حمقى! ٩٩
مصيرنا مع الأخلاق ١٠٢
الذوق حضارة ١٠٤
أحب الجماد ١٠٦

إنها مجموعة من الأفكار، وإن شئت فقل مجموعة من الدروس، التي تعلمتها من قراءات واسعة في سيرة الأدباء والمفكرين والعلماء، وكان لابد من تسجيلها في هذه السطور حتى يشاطرني القارئ ما وجدت من متعتها في نفسي، ويهتدي للدرس الذي تعلمته، والموقف الذي سطرته، واستفدته في حياتي، فهي بوتقة لا تسلط الضوء على الإفادة المعرفية والاستزادة العلمية، بقدر ما تركز على رصد المثل والقيم والشرف والنبل والمروءة في حياة الكبار، وما كانوا عليه من تمسك بالمبادئ والفضائل الكريمة العظيمة.